قبسٌ من حكايا

عمر جوبا

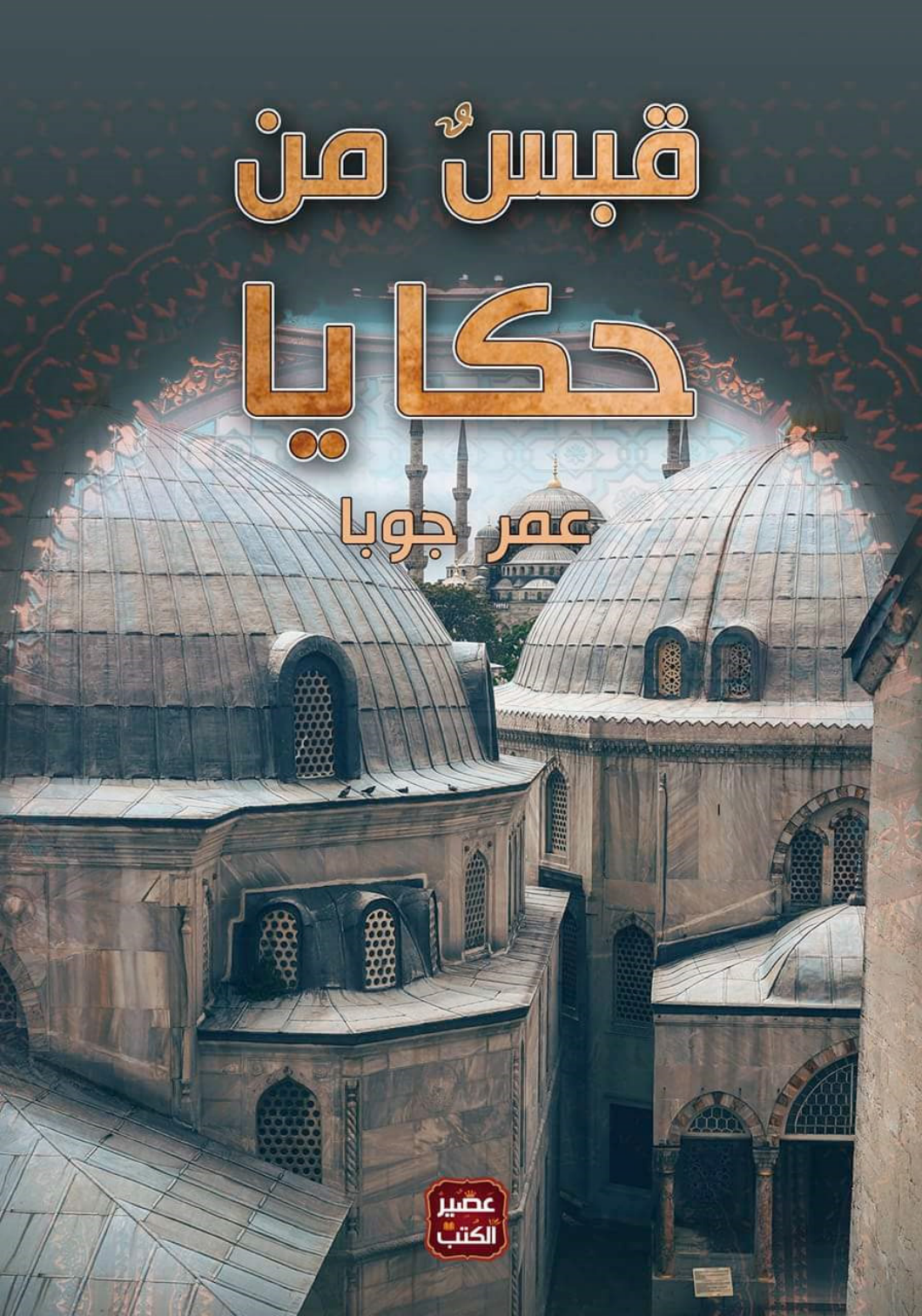

عصير الكتب

عصير الكتب للنشر الإلكتروني

كتاب: قبس من حكايا

المؤلف : عمر جوبا

تنسيق: سمر محمد

تصميم الغلاف : أحمد صلاح زردق

عمر جوبا

قبس من حكايا

الفهرس

إهـداء ٧

شكـر ٩

مقــــدمة.. ١١

الحكاية الأولى (لمّا عزفتُ بليلٍ) ١٥

الحكاية الثانية (أيام في حياة عمر) ٢١

يوم روى إسـلامه........................ ٢٣

يومٌ حكى إقدامه ٢٨

يومٌ جنى أحـلامه........................ ٣٢

يومٌ بكى أيامه........................ ٣٦

الحكاية الثالثة(فارسٌ صامت)........................ ٤٣

وامثناه!.. ٥٠

حين انتصر المثنى واعتذر!........................ ٥٥

الحكاية الرابعة(حكايات خالد) ٦١
(الميـــــــــــلاد) ٢٦
حكاية سَريّة ٦٥
«هل أنزل الله على رسولكَ سيفًا فأعطاكه؟»..... ٧١
حكاية الرجلين ٧٧
حكايا فارس..... ٨٣
حكاية أليس..... ٨٩
«خــالد لها!»..... ٩٣
قلنسوة خالد!..... ٩٨
فلا نامتْ أعين الجبناء!..... ١٠٥
الحكاية الخامسة (حكاية المدينة التي فُتحتْ بلا قتال)..... ١١٣
الحكاية السادسة (حكاية القسطنطينية) ١٢١

إهداء

إلى التاريخِ الذي اختارني كي يُفْرِغَ ما بجعبته داخل قلبي، وتلك الحروف الخمسة التي صنعت مني رجلًا لم أظن أني سأكونه يومًا، فأمّا الأول فأعتذر لكَ إن لبستُ رداءك وحكيتُ بلسانك، وأما الثاني فيعلم الله أنَّي أحبك.

شكر

كلّ أولئك الذين أخبرتُهم بفكرةٍ ما فتهللوا فرحين لأنهم يعرفون أنّي أستطيع، حتى الذين غابوا وهم يحبّون ما تخطه يداي البسيطتان أشكرهم جدًا.

مقـــدمة

لم أكنْ قط متعجرفًا في الإهداء الذي خطتْه يداي في بداية الكتاب، بل أحبُّ فعلًا كوني أستطيع أن أحكيَ ما يقوله التاريخ لنفسي أولًا ثمّ للعالم. التاريخُ فنٌ مظلوم، لا أظنُّ أن شيئًا في التاريخ قد اتُهم باتهاماتٍ شنيعةٍ كالتاريخ، يتهمونه بالكذب والتضليل والبعد عن أذهانهم وأفهامهم، لا يفهمون أبدًا أنّه فنٌ عزيز، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك!

لم أقوَ على السباحةِ في بحرٍ عجاجٍ كالتاريخ إلا بعد سنواتٍ طويلةٍ من التعب والتخبط، ولا أظنني وصلتُ للساحل ولا أظنني سأصل أبدًا، بل سأعيش وأموتُ وأغرق هنا، في هذه الأمواج.

تاريخنا ليس كأيِّ تاريخٍ سبقَ وأنْ قرأتَه، فيه كلُّ شيءٍ، العزّةُ والمنعة والكبرياء، ولحظاتُ الخزيّ التي تؤلم، والوجع الذي يُبكي، والسخط الذي يجرح حنجرتك المسكينة من البكاء وهي تهتف أن ياللغباء! تستطيع أن تعيش فيه كلّ شيءٍ، ستبكي وتفرح وتحزن في صفحةٍ واحدةٍ لا غير، وهذا ليس بغريبٍ عن التاريخ.

سترى بعينيك الغلام وهو يتوعد عمر بن الخطاب، ستسافر مع خالد من اليمن إلى أبعدِ نقطةٍ في الشمال ليحكيَ لكَ ما فعله بالفرس، وتعبر معه السماوة إلى جيوش المسلمين الأربعةِ في اليرموك ترى الرومان وهم غاطسون في الحديد، وتعود مرة أخرى للعراق ترى المثنى بفرسه يختال بين الجموع، ويحكي لكَ سعدُ بن أبي وقاص ما فعله طليحة بن خويلد بالفرس في القادسية.

ستقف جوار محمد الفاتح وترى المدفع العملاقَ يصيبُ الجدار العظيم فيسقط، ويتدفق المسلمون للمدينةِ كالسيل المندفع، سيغرق جبينك عرقًا وتنتفض أطرافك من الزمهرير، الدهشةُ والحيرةُ والخوفُ سيكونون رفاقكَ أحيانًا، لكنّك على كلٍ ستعرف أنّ كل ما عاشتْه هذه الأمّة يستحق أن يروى.

الصفحات الآتية هي صفحاتٌ ملأى بالحكايا، أخذنا منها قبَسًا لا لتقرأ، ولكن لتعيش بكامل كيانك في طرقاتِ المدينة ترى

عمرَ وينخلع قلبك من هيبته، وتسعل من غبار الجيش الذي غطى سماء مؤتة، وتتشقق شفتاك من العطش الذي سيصيب المسلمين في صحراء السماوة مع خالد.

لا تقرأ التاريخ لتجترَ أمجاد الماضي فقط، عِشْ لا تقرأ.

الحكاية الأولى

لمّا عزفتُ بليلٍ

كنّا نسيرُ معًا، أنا وهو في طريقٍ لا نعرف له نهاية، ولا يهمنا أن نعرف أين ينتهي، المهم أننا معًا، حينَ مرَّ من الليل أكثره قال لي أنّه حلم أيامًا طوال بأن يكونَ فارسًا، لا فارسَ حربٍ أو فارسًا عشق فتاته، لا يريد إلا أن يكونَ فارسًا لخيلٍ يحبّه، وضعتُ يدي حول كتفه ثمّ مضينا معًا، مضينا حيث يرقد أدهمٌ تربيتُ معه منذ صغري، كان فرس جدّي الذي أُحبّه كما أحبَّه جدي، ورباني مذ كنتُ طفلًا أن أكون أنا وهو دومًا معًا، أصادقه ويصادقني ولا يغيب عنّي أو أغيب عنه، كان ناعسًا كالعاشقين، مسحت على رقبته وأخبرتُه أنّني وصديقي سنسهر حتى الصباح معه. امتطيتُه وأردفتُ صديقي خلفي.

حين استوينا على ظهره كان يسابقني، يعدو كأنّ مسًّا أصابه، عدا بنا نحو صحراء لم نعرف ما الذي أتى بها في هذا الليل، سمعنا صوتًا غريبًا، ولمّا اقترب من التلة البعيدة وجدنا أنفسنا في مكان يُقال له بدر، وخلف التلة معركة حامية، إنّها الضربة

الأولى لسيف الإسـلام، المعركة الأولى، والصرخة الأولى، والقعقعة الأولى، حين رفع رجلٌ ما عقيرته أن الله أكبر لوى أدهمنا عنقه وعدا بنا مرة أخرى. ظللنا نسيرُ حتى أتينا إلى اليرموك، حدُ الرومِ وحديدُهم يغطيان الأفق البعيد، ونحن من فوق الجبل نرى كأنّ الأرضَ قد افترشتها قطع الحديد اللامع، حين اشتعلتْ النّار في الهشيم رأيناه، هذه غضبة فارسٍ ولا شك، وحين غاص وحيدًا في صفوف الروم عرفنا أنّه خالد! رباه! قرأنا عنه آلاف المرات لكننا لم نعلم عظمة رجلٍ كهذا إلا حين رأينا بأعيننا.

كان في الصفوف الأولى للمسلمين، أتى من العراق عابرًا بجيشه صحراء مهلكة، كادت تقضي عليه وجيشه، لكنّه هنا، يضرب في الرومِ وحده، ويهدّ جانبًا من جيشهم وحده، حين عاد بفرسه أبصر بنا ورآنا، حينها سابق الأدهم الريح، سار طويلًا جدًا، حتى نزلنا قريبًا من الجسر، كان الجو عصيبًا جدًا، والمسلمون يقفون بينهم وبين الفرسِ جسرٌ ما، التهبتْ المعركة وسقطت الرايةُ في يد المثنى، حينها طار الأدهم بنا وراح يختال، كأنه يحتفل بوقوع الراية في يدِ المثنى، وحين غاصَ سيف أحدهم في جسد المثنى ولى الأدهم مطرقًا.

كان يسير بنا سيراً وئيدًا، يطرق كأنّه لم يصب من قبل، وكنّا نعرف أنه يوم الجسر الشهير، يوم أن خسر المسلمون ألفي رجلٍ بفعلتين حمقاوتين، لكننا نعلم أن المثنى لم يمت، وبعد ساعاتٍ

سيقتل قائدي الجيش، ثم بعد أيامٍ سيقود معركةً أعظم من اليرموك، ربتُّ على عنق الأدهم كي يسير لكنه سار متهاديًا حتى وصل إلى وادٍ عميق، سمعنا صليلَ سيوفٍ نعرفه جدًا، نألفه جدًا، نحبّه جدًا، نشتاقه جدًا، إنّها القادسية! أعظم أيام المسلمين في خلافة عمر بن الخطاب، رأينا كل شيء، كل تفصيلةٍ غابت، وكل حكاية لم تُحكَ أمام النيران في ليل الشتاء القاسي. رأينا أبا محجن يقول شعره، والقعقاع يعلو بصوته، ورستم يمكر بالمسلمين وطليحة يلتف حول الجيش وحده. وحين أنشب القعقاع القتال وحده رحل أدهمنا إلى الصحراء البعيدة.

كنّا بليل، لا نجدُ شيئًا أمامنا، سرنا طويلًا حتى حدى حادٍ شجيّ الصوتِ عظيمُ الحزن، يحدو بالقافلة وهو يسير بطيئًا، هذا صوتُ حبيبٍ فقد حبيبته ولا شك، لا نعلم لمَ نسير هنا مع هذا الحادي، هل أدهمنا يعشق، أم يحبّ أن نعشق نحن حتى نجعل لياليه صخبًا وشعرًا؟ همستُ في أذنه لماذا نحن هنا يا صديقي، فأتانا شيخٌ كبيرٌ سار بجوارنا، أشار إلى رجلٍ ملثمٍ لا يظهر منه سوى عينيه، وقال هذا صقرُ قريش، ونحن هنا في أقاصي الأرض، وخلف هذا الجبل العظيم بحرٌ كبيرٌ يحمي الأندلس منّا، هذا رجلٌ سيصير هناكَ صاحب دولة. حين التقت عيناه بعينيّ ارتعدتُ، ثم صهل فرسنا، ذهب الحادي ناحية القمر، وذهب أدهمنا نحو الصحراء.

سار طويلًا حتى نزل خلف الصحراء عند قومٍ نراهم ولا نراهم، كلهم ملثمون لا تظهر من وجههم الصلبة سوى أعينهم، كيف علمنا أنّها صلبة من خلف اللثام؟ العين فاضحةٌ يا صديقي، لئن لم تقرأها هلكت، عرفتُ أين نحن، هذه أرض المرابطين، وجدنا أنفسنا في قلب جيش ابن تاشفين، يعبر الجزيرة الخضراء إلى الزلاقة، صاح صائح واشتعلت نيران المعركة، رأينا عجبًا، ملكٌ أديب شاعرٌ هبّ من مكانهِ بفرقةٍ من جنوده واصطدم بألفونس وجهًا لوجه، حين فعل هذا هزّ الأدهم رأسه منتشيًا، ثمّ مضى.

عدا بسرعةٍ عجيبةٍ لم أعهدها منه، خفتُ عليه، همستُ في أذنه أن حنانيك يا صديقي، ما لك؟ صهل عاليًا ثمّ نظر برأسه ناحية القمر، نظرنا فوجدنا راياتٍ كبيرةً، وصليبًا يسقط تحت أقدام خيول صلاح الدين، وسلطانًا أعجميًا يصيح وإسلاماه! ورجلًا يسمى قتيبة بن مسلم، وفارسًا يقال له عبد الله بن قيس الجاسيّ، وسلطانًا واقفًا على مدينة عظيمة، يكبّر لأن الجنود فتحوا في أسوارها فتحة يتدفقون منها إلى داخل المدينة. هدأ الليل، وهدأ معه أدهمنا، نزلنا من فوقه وهمستُ له أنّك صديقٌ جيدٌ، صهل كأنّه يقول لي عذرًا لأن ليلتنا كانت ملأى بالشجن، همتُ في الليل طويلًا ثم امتطيته من جديد وأردفتُ صديقًا خلفي، ورحنا نسير لعل الليلة تنتهي.

الحكاية الثانية

أيام في حياة عمر

يوم روى إسلامه

دُرْ حيث دارت الشمسُ ولن تجد لها تأثيرًا كما فعلت في أرض العرب قديمًا، وكأنَّ لهيبَها يزداد حين تضرب أشعتها أرض الجزيرة، تحيل الهواء والأرض والوجود كله إلى قطعةٍ من جحيم، يعلمها أهلوها، ويخبرونها حق الخبر.

ولن تجدَ أحدًا يُحدثك عما فعلته الشمسُ به كهذا الفتى القرشيّ الذي يرعى لأبيه قطعان الإبل، تربَّى على الغلظة من أبيه، وأرض بلده، وشمسها وهوائها، ومع أنه كان من القليلين الذين يُجيدون القراءة والكتابة في العرب إلا أن هذا لم يشفع له عند أبيه الخطّاب قيد أنملة.

نشأ الفتى نشأة غليظة لم يعرف فيها ألوان الترف، وكابدَ الشمس وصبر على الإبل واحتطب كما لم يفعل أقرانه، حتى أنه لم ينسَها لأبيه بعد إسـلامه، ولعل غِلظة تربيته صغيرًا صنعت

منه رجلًا جاد الزمان به مرة واحدة، ثم عقمت النساء أن يلدن كالفاروق أبدًا.

قال عنه رسول الله : «لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر»، وهابته الدنيا بإنسها وشياطينها، خاف ربه فأخاف الله منه إبليس!، لربما كتب الكتّابُ ونظم الشعراء في عمرَ ما لم يفعلوه مع غيره، وتلك الحروف القليلة التي أكتبها لتتوارى خجلًا إذا علمت أنها لـ عمر.

شبَّ الفتى بين إبل أبيه، وركوب الخيل، ورمي النَبل، وأخبار العرب في أسواقها، وكانت السفارة في الجاهلية إليه، إن وقعت حربٌ بين قريش وغيرهم بعثوه سفيرًا، أو نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا ومفاخرًا وارتضوا به.

وحين دنت كهولته سَمِعَ عن رجلٍ هنالك يُدعى محمدًا يدعو الناس لدين جديد، ولا عجب أن رجلًا مثله فعلت فيه الصحراء ما فعلت أن يرد هذا الدين ولا يقبله، ويستميت في الدفاع عما آمن به في جاهليته، فعمر عاش الجاهلية وسبر أغوارها وعرف حقيقتها وتقاليدها وأعرافها فدافع عن جاهليته بكل ما أوتي من قوة، ولذلك لما دخل الإسلام عرف حقيقته وجماله وتيقن الفرق الهائل بين الإيمان والكفر ولذلك قال : «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»!

كان شديدًا على المسلمين الأوائل وذُكر أنه ضرب جارية حتى تركها من شدة إعيائه هو، ضربها حتى سقط السوط من يده، ولم يكسرْ هذا الجبل الأصم سوى منظر نساء المسلمين وهن يرحلن للحبشة في هجرة المسلمين الأولى، فرق قلبه وانكسر صوته وهو يحادث أم عبد الله بنت حتمة فلما رأى المسلمين يرتحلون قال لها : إنه الانطلاق يا أمَ عبدِ الله؟

قالت : نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجًا، فقال: صحبكم الله.

وقالت أم عبد الله : فقد رأيتُ منه رقةً لم أرها قط، وحين جاء عامر بن ربيعة قال لها: أوطمعتِ في إسلام عمر؟ قالت: نعم. قال :إنه لا يُسلم عمر حتى يُسلم حمار الخطاب.

ورغم هذا أسلم عمر!

حكى الرواة كثيراً عن إسلامه، حكوا رواياتٍ أغلبها ضعيف، ولكن الحقيقي والثابت أن السبب الرئيس لإسلام عمر هو دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين إليك» وكان أحبهما إليه عمر.

امتشق عمر حسامه وذهب يريد رسول الله، سأل عليه فقالوا هو أسفل الصفا، فضرب عليه وعلى أصحابه الباب، ولما سمعوا صوته وجلوا ولم يجترئ منهم أحدٌ أن يفتح له، أما حمزة فلما رأى القوم وجلين قال: مالكم؟ قالوا: إنه عمر؟ قال: مه! فما عمر؟ إن كان يريد الله به خيراً يُسلم وإلا كان قتله علينا سهلًا! فلما دخل ابن الخطاب أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجامع ثوبه وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة، فقال عمر: جئت أؤمن بك يا رسول الله، فكبَّر رسول الله، ولما سمع القوم تكبير النبي صلى الله عليه وسلم علموا أن عمر أسلم.

أما عمر فلما هدأت روحه وسكنت امتطى صهوة جواده حاملًا راية، سيدفعها للأمام ويمضي بها قُدُمًا في طريق طويل، يقف ساعدًا لرسول الله، وينافح عن المسلمين، ويكسّر أصنام العرب، ويقوّض المسلمون في عهده أعتى قوتين عسكريتين في زمنه وهو يقرقر بطنه من شدة الجوع في عام الرمادة.

ولله دره، كان ذكيًا من يوم أسلم، فلما أراد أن يُعلم العرب خبرَ إسلامه سأل : أي قريشٍ أنقل للحديث؟ فقالوا: جميل، فذهب إليه وقال: إني مُحدثك بحديث، أتكتمه عني؟ قال:نعم، قال: فإني قد أسلمت، وما لبث الخبر أن انتشر كانتشار النار في الهشيم.

ودفع عمر رايته من فوق جواده أول مرة بعد إسلامه بسويعات لما جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن ربما تكون لهذه حكاية أخرى.

يومٌ حكى إقدامه

صباحات مكة ليس كأي صباحٍ على وجه البسيطة، رائحة الرمال التي اختلطت بندى ليلةٍ شديدة البرد، وهواء الجبال التي تحيط بمكةَ وكأنَّها تحوطها من الناس، والنُّجوم الباهتة الضعيفة التي ملت السهر ليلة كاملة فراحت تغفو شيئًا فشيئًا، ضعْ مع هذا كله أنه أول صباحٍ لعمر بن الخطاب في الإسلام، وهذا يكفي لجعله صباحًا مميزًا جدًا.

الروح التي يشعر عمر بها اليوم روحٌ خفيفة، وكأنَّها ألقت جبالَ الهموم وبحارًا من الغم والصراع، النفس هدأت أخيرًا بعدما أنقذها عمر بدخوله للإسلام، ولما كان قدر الرجال دومًا جليلًا فإن عمر لم ينتظر كثيرًا حتى يهز سيفَ غلظته على المشركين، فما إن أسلم حتى سأل رسول الله: يا رسول الله، ألسنا على الحق

إن مِتنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، فقال عمر: ففيمَ الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن.

وكانت هذه أولى موافقات عمر للدين إذ أن رسول الله في هذا الوقت كان قد رأى أنه حان الوقت للجهر بالدعـوة، فالدعوة أصبحت قوية، وقد أعز الله الإسـلامَ بعمر وحمزة وهما كالجبلَيْن يحملان هم الدين ولا يخافان في الله لومة لائم، فأذن بالإعـلان وخرج المسلمون في صفين، على رأس أحدهما حمزة وعلى رأس الآخر عمر، ولهم كديدٌ كَكَدِيْدِ الطحين، فلما رأى المشركون المنظر أصابهم الغيظ.

أما عمر فلا يرضى أبدًا أن يكون حلقة في سلسلة تقليدية فرامَ لنفسه منزلًا أعلى من مجرد الظهور أمام مشركي قريش، فقد قاتلهم عمر حتى صلى عند الكعبة ومعه المسلمون، بل وطاف عليهم أجمعين يخبرهم أنه أسلم ويستفزهم صغيرهم وكبيرهم، ولما قاتلوه ضربهم عمر حتى أعيته الشمس وكلّت يده من ضرب رءوسهم.

وإن تعجب فعجبٌ خبر هجرته فإن عمر لما هاجر لم يستخفِ كبقية الصحابة ولكنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر رمحه، ومضى قِبل الكعبة فطاف

سبعة أشواطٍ متمكنًا، ثم قام إلى المقام فصلى متمكنًا ثم وقف على حلقات اجتماع القوم حلقة حلقة فقال لهم :شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه الأنوف، من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويرمل زوجه فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد، لله درُّه.

وما إن قدم المدينة حتى هزَّ سيفه في طريق طويل بدأه ببدر الكبرى، وما زال عمر يضرب بسيفه وينافح عن الإسلام ويضع سيفه من المشركين يمينًا وشمالًا، فقتل خاله في بدر، وأسكت أبا سُفيان في أحد، وحَمَلَ التراب على عاتقه في الخندق، وسار مع المسلمين في السرايا هنا وهناك حتى فتح رسول الله مكة، وعمر لم يُغمد سيفه، ولما علا الغبار في حُنَيْنٍ وتلاطم الناس في قتال مرير، وأطبقت الإبل على بعضها فما سُمِعَ سوى صليل السيوف وحفيف السهام وصوت النبي يأتي من بعيد يقول أنا النبي لا كذب كان حوله نفرٌ من الصحابة لم يفروا كما فعل الناس، وكان من هؤلاء النفر عمر، شد على سيفه حتى صارت يده وسيفه وكأنما قُدَّا من فولاذ، ينافح عن رسول الله ويدفع مشركي هوازن وثقيف بعيدًا حتى التأم شمل الناس وانتصر المسلمون.

ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لمْ يترك عمر قوسه وسهمه، بل أعطى كل قوس باريها، حتى أذل الله له الفرس والروم وهما أعتى قوتين عسكريتين في الأرض كلها، لله درُّك

وعليه شكرك يا ابن الخطاب، كان إسلامك فتحًا، وهجرتك نصرًا، وإمارتك رحمة، عشت لا يهدأ لك بال، ولا تكسر لك راية، ولا ينهزم لك جيش، ولا سبيل للملوك أمامك إلا الصغار، ولما أتتك الدنيا وهي راغمة نفضتها كأنها لم تكن، لو لم يكن لك في تاريخ القيادة إلا نومك تحت شجرة وفوق رأسك يقف فارس بكامل عتاده لكان كافيًا، ولكن ربما تكون لهذا حكاية أخرى.

يومٌ جنى أحلامه

حين مالت الشمس نحو الغرب تنوي التخلي عن عرشها السماوي مؤقتًا لكي يفرض الليل سيطرته رويدًا رويدًا على السماء كان عمر نائمًا تحت جذع شجرة، يريح الجسد الذي أنهكته السنون وأكل منه الدهر وشرب حتى شبع.

في طرقات المدينة كان رسولٌ ما، يذرع المدينة ذهابًا وإيابًا يريد عمر، يقول يا قوم، أين ملككم؟ ويقولون نحن ليس بيننا ملك، إنما نحن مؤمنون وهو أميرنا، ورغم ذلك فهم صنفان منهم جاهلٌ لا يعرف مكان عمر، ومنهم مَنْ أشار ناحية التل القريب، خطا الرسول حثيثًا حتى ارتقى للعلياء حيث عمر، ولما رآه نائمًا كطفلٍ بين أحضان أمه، استعجب وقال : «حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر»

ورغم أنه فارسيٌّ موتور، وقد قضى هذا النائم على دولةٍ كان يسكنها هذا الرسول وتُحكم قبضتها على مشرق الأرض إلا أن شيئًا ما في شكل هذا النائم ألجم الفارسي تمامًا، ربما عُمق نومه رغم ثِقل حمله، وربما الأرض التي يتوسدها، وذراعه التي انثنت تحت رقبته كأنها تحميه من أرضٍ قاسية، وربما كان جو المدينة، أو هواء التل الذي يقف عليه، لا يعرف، هو فقط قد نسي الكَلِمَ، ويقولون أنه أسلم، ولم يدرِ إلا بلسانه حين نطق هاتيك الكلمات.

وحين كان الرسول فوق فرسه يحمل للجسد النائم رسالة ما، فكَّر كيف يحيا هذا الرجل وقد دانت له مشارق الأرض ومغاربها، جيوش المسلمين العنيدة قد انساحتْ أخيرًا في بلاد العجم، أخبره أحد جوَّابي الأنحاء أن العرب قد عبروا بخيولهم على الماء، حتى صاح الفرس أنهم يقاتلون جنًا لا بشرًا، وأخبره صديقٌ ما حول نيران فارس في شتاءٍ بارد قاسٍ أن المسلمين غاطسين في الحديد قد دخلوا معركة تدعى القادسية، علموا فيها الفرس ألا يرفعوا رءوسهم والمسلمون في طرقات العراق أبدًا، يقولون أنهم حاربوا أربعة أيام كاملاتٍ، وقد هدَّ فارسٌ منهم يدعى القعقاع ثلث الجيش وحده، وفارسٌ يُدعى طليحة دخل جيشهم وسرق خيلهم وقتل أبطالهم في ليلةٍ واحدة وحده!

أما بنو أسد، قبيلة ما كان الفرس يطأون مثيلاتها من العرب

فقد أذاقتْ بني مجوس العذابَ ألوانًا في يوم يُدعى أرماث بني أسد، ليلة الهرير الباردة حملت أطنانًا من الموت في أشكاله إلى المجوس، الموت جاءهم سيفًا ورمحًا وسهمًا وبردًا ورعبًا! يالذل بني مجوس، العرب الذين كانوا بالأمس القريب شتاتًا قد جمعهم محمد ثم صاحباه من بعده على الإسلام، وقوضوا ملك فارس.

رجلٌ روميٌ سكِّيرٌ قابله في طريق ما حكى له أن ما فعلته جيوش المسلمين الضاربة في شرق الأرض قد فعلت مِثْلَيه في غربها، وقد علا رجلٌ ما حصنًا قد أحاطوا به مدينة مصرية، ولما كبَّر انهار الحصن من دفعات الرجال !

لقد انتزع منهم القدس كما انتزعت منهم دمشق من قبل، وإذ سقطت دمشق والقدس ومصر، فلا سلطان للروم بعد اليوم حول بحرهم، ويومًا سيصل المسلمون حتى رومة.

أي قومٍ هؤلاء، منذ زمن ليس بالبعيد لم نكن نزن العرب كلهم بجناح بعوضة في ميدان الحروب، كانوا شجعانًا نعم، وألفيناهم مقاتلين أشداء، لكنهم كانوا دومًا مشرذمين هنا وهناك، دومًا كانوا ضعافًا لا ناقة لهم في خطط الحروب، ولا جملَ في إدارة المعركة، فما الذي يغير قومًا من النقيض إلى النقيض في بضع عشرة سنة ؟!

أية قوةٍ تلك التي يحملها محمدٌ وصاحباه غيرتْ رجالًا وشعوبًا وقبائل بأكملها، وأي رجل هذا الذي ينام ملءَ جفنيه وجيوشه تجوب الأرض شرقًا وغربًا حتى أتته كنوز كسرى تحت قدميه فرفسها وتولى عنها؟

لو أن هذا الرجل كان ملكًا لفارس لأحاط نفسه بالذهب والخدم في كل خطوةٍ يخطوها، ولو كان هرقل روم لصنعوا له تمثالًا يعبده سفهاؤهم كل يوم، ولكنه هنا، يداه خشنتان من سيفٍ لم يكل بعد، وروحٍ وقادة لم يأن أوان انطفائها اليوم، وقلبٍ يحمل للمسلمين وللجسد الذي يسكنه مجدًا تبنيه الجيوش كل مطلع شمس، ويكتبه التاريخ مستظلًا بعدالتهم.

كل هذا دار في صدر رسول فارس وعمر نائم لم يصحُ، وحين فتح عمر عينيه لم يكن يعلم أنه حين التقت عيناه بعيني الرسول رجف قلبه وانتفضت جوارحه وراح يسأل نفسه كيف لهاتين العينين أن تُغمضا يومًا للأبد؟ ولم يكن يعلم أن هذا دانٍ جدًا، وربما تكون لهذا حكاية أخرى.

يومٌ بكى أيامه

طرقاتُ المدينةِ تحوي أسرارًا تعجز الروح عن احتوائها، وتحكي حكاياتٍ لا تمل منها الآذان، هنا أو هناك مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند التل الكبير دخل الرجال بعد غزوة أحد يحملون جرحاهم وجِراحًا لم تندمل بعد، وهناك عند كثيب رمالٍ قديمٍ خرجوا لسرية مؤتة، وقد تعاهدوا ألا يعودوا حتى يزلزلوا أقدام بني الأصفر، وأنت حين تسيرُ في عهد عمر بن الخطاب تُغيِّبك طرقاتُ المدينة كالأمِ التي تحتضن ابنها بعد غياب.

من بعيد انزويتُ وراء جِدار قديم أرقب عمر بن الخطابِ يسير مع نفرٍ من المسلمين الأوائل، أيامُ الإسـلام الأولى الغضة، التي لم تتلوثْ بخلافات الرجال بعد، أو دماء الأحرار حتى

اللحظة، ولم تتكسرْ أبواب الفتن أو تتلوث سماءات الجزيرة العربية بحروب المسلمين لبعضهم، لا أعلم لماذا ترتبط عندي رؤية عمرَ بن الخطاب بارتجاف القلب، لما رأيتُه أحسست أن قلبي توقف عن النبض لحظة وارتجف، كان مهيبًا طويلًا تشعر أن عينيه هاتين تسبران أغوار روحك وتقرآن ما يجول بداخلك.

خطا إليه حثيثًا غلامٌ ما، قال له : يا أميرَ المؤمنين، أنا غلام المغيرة أصنع الرحا، وقد أثقلني سيدي، فكلمه ليخفف عني، فقال عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك، وهو يضمر في نفسه أن يُكلم المغيرة فيه.

قال عمر: إني سمعتُ أنك تصنع رحا، قال: نعم، قال عمر: فاصنع لي رحا. ثم مضى.

فلما ولى عمر قال الغلام: لأصنعنَّ لك رحًا يتحدث بها المشرق والمغرب.

وحين صدح في السماء أذان الفجر كان عمر وقد ابتلتْ لحيته من أثر الوضوء يخطو نحو المسجد ليؤم المسلمين، وكان يقرأ في الركعة الأولى بيوسف أو النحل حتى يجتمع الناس، ولم يصلِ عمرُ قط إلا وقد سار بين الناس يساوي الصفوف، فلما ساوى الصفوف وتقدم وكبَّر إذا بخيطٍ من نار يمزق كتفه ثم يُطعن طعنة مثلها في خصره!

وسمعت الصفوف الأولى صوت عمر وهو يقول: أكلني الكلب، أو قتلني الكلب!

فأما المسلمون في نواحي المسجد فقد فقدوا صوتَ عمر، رباه! ماذا حدث، ولماذا كل هذا الهرج في مسجد رسول الله؟ أين عمر؟ ولماذا يبتلع الظلام الأحداث هكذا ولا يرى أحد من المسلمين شيئًا؟ اللهم إلا نفرٌ قليلٌ ممن كانوا في الصف الأول.

وأما عمر فإنه أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فقدمه للصلاة ليصلي بالناس مكانه، وحاول عمرُ أن يصلي جالسًا وهو ينزف ولكنه لم يستطع، فصلى حين عاد لبيته بسورتين خفيفتين.

وأما أبو لؤلؤة فإنه لما قتل عمر أراد أن يَخرجَ، فراح يضربُ بخنجره يمينًا وشمالًا حتى أصاب ثلاثة عشر رجلًا من المسلمين مات منهم سبعة، فألقى عليه أحد المسلمين رداءً ليغطيه، فلما رأى العِلجُ أنه مأخوذ قطع عنقه من الوريد حتى الوريد.

ثُمَّ احتمل القوم الجسد الجريح، الجسد الذي تربى في مراعي مكة الخشنة، وأكلتْ منه الشمس حتى شبعت، وشربتْ منه رمضاء الجزيرة حتى ارتوت، الجسد الذي خرج يومًا مُمسكًا بسيف يريد قتل رسول الله، ثم حمل نفس السيف فشهدَ بدرًا وأحد، والمشاهد جمعاء، وهزَّ سيفه في حُنين يحمي الرسول حين خذله الناس، وهدَّ الفرس والروم، ودانت له معظم الأرض،

يحملونه وهو لا حول له ولا قوة، وهم واجمون، وكأنهم ما أصابتهم مصيبةٌ مثلها قط، تهتز قلوبهم مع اهتزازات رمال طرقات المدينة تحت أقدامهم.

ولما استقر بهم المُقام في بيتِ عمرَ قال لابن عباس: انظر من قتلني، فجال في الناس جولة وقال: غلام المغيرة. قال: الصَّنع؟ قال: نعم. قال عمر: قاتله الله! لقد أمرتُ به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيدِ رجل يدعي الإسـلام.

وأتوا بطبيبٍ فسقاه منقوع التمر، فخرج من جُرحه ولا يتبينون أهو نبيذٌ أم دم، فسقاه لبنًا، فخرج اللبن من جرحه فعلم أنه ميت، فقال: أوصِ يا أمير المؤمنين، وكما عاش حياته كلها معهما كان أول شيء أهمَّ عمرَ أن يُدفن بجانب صاحبيه، فقال لعبد الله: اقضِ ديني، ثم اذهب لعائشة فقل لها إن عمرَ -ولا تقلْ أمير المؤمنين فلست اليوم للمؤمنين بأمير- جرّد البطل نفسه من النيشان الذي أجمع عليه المسلمون، فأقرئها السلام وقل لها إن عمر يستئذنك أن يدفن بجانب صاحبيه، فذهب عبد الله بن عمر إليها فوجدها تبكي، فقال: يا أمَّ المؤمنين إن عمر يستأذنك أن يدفن بجانب صاحبيه، قالت: كنت أدخره لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي.

وعمر نائم، جريح، تذهب به الأفكار حيث تذهب، وتلعب

به الظنون إذ تلعب، حتى رأى ظلَ عبد الله من بعيد، فوجف القلب، وحشرجتْ الروح، واحتبس الصوت، وشعر أن الدنيا كلها تضيق عليه، وأن اللحظة التي خطا فيها ابنه كانت دهرًا، ولما استقر بين يديه قال: ها؟ ما جوابُها؟ قال عبد الله: الذي تحب يا أمير المؤمين.

وأطلق الجريح زفرة حملت معاها كل ما ساءه، وقال: الحمد لله، ما كان شيء أهمَّ عليّ من ذلك، وحين غروب شمس يومٍ ما، وضع الفاروق خديه على الأرض وظل يردد ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي حتى فاضت الروح، فأما الجسد فسكن للأبد، وأما المسلمون فكانوا يبكون وكأنهم قد فقدوا أبكارهم، وأما طرقات المدينة فغطاها الحزن حتى وكأنها غرقتْ فيه، وأما التاريخ فكان جوار حائط قريب قد وضع قلمه، وطوى صفحته وبكى حتى سفح من مآقيهِ دموعًا غزارًا على رجلٍ جاد به الزمان مرة واحدة، ثم عقمتْ نساء الأرض من بعده.

إيه يا ابن الخطاب، لو لم يكن في حقك إلا كلمة رسول الله إذ قال: «لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر» لكانت كافية، فما بالك وقد غيّرتْ تاريخًا، وفتحتْ أرضًا، وأظللتْ سماء العرب والعجم بالعدل، كنت عُقابًا فرد جناحيه فغطى شرق الأرض حتى فارس وغربها حتى القدس ومصر.

أتتكَ أموال كِسرى وكنوز العراق والشام، وحين دخلتَ القدس كنت تسير في الأرض وغلامك يركب الخيل، وظللت هكذا حتى ابتلعتك القدس في طرقاتها، ولكن ربما تكونُ لهذا حكاياتٌ أخرى.

الحكاية الثالثة

فارسٌ صامت

لما أذن النهارُ للشمسِ أن تغيب، وأطلق العنانَ لنجومِهِ وسَوَادِه ليغطيا بيداءَ العربِ وسهولَ العجمِ لم يكنِ المسلمون قد نفضوا أيديهم من تراب أبي بكر الصديق بعد، ولم يبايعْ أحدهم عُمر حتى الساعة، والناس متشرذمُون ضِعاف، وجيوشُ الإسلام تحمل شبابَ المسلمين وهم في شتات، فحتى جيش العراق الذي كان ينافح عن الإسلام على حدود الجزيرة تشرذم.

والعرب يخافون، ويرتعدون حتى اليوم من الفرس، اللهمَّ إلا فئة قليلة عَرِكت قتال المجوس حتى وكأن قلوبَهم قُدِّتْ من صخرٍ أصم، وإذا كان أبو بكر قد مات، وآلاف الصحابة الذين كانوا يحملون القرآن قد رحلوا أيام حروب الردة، فإن الإسلام لم يعدم رجاله بعد!

عمر يجب أن يختار في أسرع وقت قائدًا لاستكمال قتال الفرس في العِراق، ولمَّا كان العرب يخافون قتالهم فإنَّ عمَر أمَّر عليهم من طلب منه الإمارة، أبو عبيدة الثقفي، فلملمَ الجيشَ

المسلمَ الذي ضيعه الشتات في أرض العراق، وانضم بطل اليوم والغد لإمرة أبي عبيدة راضيًا مُطيعًا، وكادت الأرض تتنفس الصعداءَ بعد طول وقت.

ولكن أنَّى لها هذا؟ وعليها طبول الحرب تدق وكأنها أصابها المسُّ، و «بَهمن جاذويه» يؤلب أهل العراق على المسلمين، وبطلنا لا يذوق طعم النوم من الترقب؟

حشد قائد الفرس حشدًا عظيمًا وأقسم ألا يكون للعربِ بعد اليومِ أيُّ وجودٍ على أرضه، والمسلمون بعد أن لملموا أنفسهم أقسموا ألا عودة للمدينة حتى يُتمِّوا ما جاءوا لأجله، الطرفان حانقان أشد الحَنَقِ، والخيول طال انحباسها تريد الحرب تحسب أنفسها فرسانًا لا خيول، والسيوف ملّتْ أغمادها وصارت تأنفُ الركود، وحبست الأرض أنفاسها من جديد.

اصطبغت السماء بلونٍ أحمرَ دامٍ إثر معركة مع الليل، وكأنَّ الشمس تشارك الجيشين على أرض المعركة، وتصافَّ الفرسان غاطسين في الحديد، القلوب تكاد تقفز من الحناجر فَرَقًا، والسواعد تشدُّ على سيوفها خوفًا لا شجاعة، اليوم لن يكون عاديًّا، وأبو عبيدة خالف الكل وأصرَّ أن يعبر «جسرًا» ما نحو الفرس.

كان لا بد إذًا للمعركة أن تنطلق، وكان لا بد لبطلنا أن ينحِّيَ التاريخ جانبًا ليمسك هو بقلمه يكتب صفحة جديدة، لا يكتبها غيره، فزعة السيف الأولى كانت من نصيبه، والصرخة الأقوى كانت لسيفه.

تلاطم الجيشان في صدام كالأمواج الهادرة، وصار وقع الحديد على الحديد عاليًا حتى عانق السحب الخائفة في السماء، حفيف السهام كان يكتب قصيدة لا يفقهها إلا القسيّ، وبطلنا صامت لم يكتب حرفًا بعد!

راحت الأرض تئن من ثِقلِ ما تحمل، الموت مرعب وأنتَ تنام على فراشك، فما بالك لو ألقيت بنفسك فيه بكامل إرادتك؟، الموت هنا في كل مكان، تراه في كل رشقة نبل، وتسمعه في صليل السيوف، وتشمُّ أكثر ما تشمُّ رائحة الموت! وبطلنا صامت لم يكتب حرفًا بعد.

عشرات، مئات، ثم آلاف القتلى يسقطون، سهمٌ غائر لا يُعرف صاحبه قد ينهي حياة بأكملها في سويعات، سيفٌ صارم سلَّه رجلٌ ما قادرٌ على تغيير مسار التاريخ، حنجرة واحدة ملتهبة قد تستفز قومًا ليقاتلوا كالأسود.. وبطلنا صامت لم يكتب حرفًا بعد.

كان يوم الجسر أشدُّ أيام المسلمين الأولى في العراق، ودرسًا كتبه التاريخ بالدم والخوف لنتعلمه كل يوم، أبو عبيدة عارض القادة كلهم بما فيهم بطلنا، وعبر الجسر للفرس بدلًا من عبورهم هم ناحية جيشه، وآهٍ يا ابن الخطّاب لو تركت بطلنا يحمل الراية اليوم منذ صبيحته، آهٍ !

استشهد أبو عبيدة بعد مغامرةٍ خطيرةٍ منه، ثم استشهد قادته بعده واحدًا تلو الآخر، حتى استقرت الراية في يدِ بطلنا، ولكن الوقت كان متأخرًا جدًا ،، جدًا.

أحد المسلمين قطع الجسر ليستميت المسلمون في القتال ولا ينهزموا، ولعمري ما انكسر المسلمون طيلة تاريخهم إلا بأبنائه، فهذا لم يكتفِ بقطع طريق النجاة على المسلمين، بل وقف يمنعهم من العبور والفِرار! ألقى جنود الجيش المسلم المشتت أنفسهم في الماء واستشهد منهم ألفا رجلٍ بفعلةٍ حمقاء، ولم يعد يصلح للبطل أن يظلَّ صامتًا بعد الآن.

أسكتَ قاطع الجسر، وداسَ على كل شيء وجمَّع حوله نفرًا من أبطال المسلمين، راحوا يقاتلون عند الجسر حتى عبرته فِرقة مهلهلة من المسلمين، أمرهم البطل حالًا أن يُصلحوا ما خُرِّب من الجسر وليعاونهم عليه خبراء المجوس المسالَمين، وأما هو فأنزل خوذته على عينيه، وشدَّ لجام فرسه نحوه، واستقتل في

الدفاع عن الجسر، تحوّل لآلة لا تعرف إلا القتـال، لن يعبروا ولو من فوق جثته، هنا وفي هذا الموقف لا موت، هنا نصرٌ يحمي المسلمين، أو نصرٌ يردع الفرس !

زلزل وحده أقدام الفرس، قطّع رءوسًا عجز عن عدِّها، قتّل نفوسًا لا يعرف لها عددًا، أصمَّه صوت السيف هو وفرسه، فكان يدفع به وبنفسه نحو الفرس، وجلجلت صرخة نصر عالية كان هو صاحبها.

وصاح صيحةً خلعت قلوب المسلمين قبل الفرس، أن اعبروا الجسر أيُّها القوم وحنانيكم، فإني لن أزايل مكاني هذا حتى أراكم في الجانب الآخر!!

يالله أيُّ رجلٍ هذا؟! أيُّ قلب يحمله؟! أيّةُ روحٍ هاته!!

طار الغبار لعنان السماء، وانجلى اليوم عن نصرٍ مؤزّرٍ للفرس، وجريحٍ سيقتله جرحه بعد أيام، حمل الجسد يومًا اسم المثنى، لن يموت اليوم، حتى يُقرَّ الله عينه بهزيمةٍ وشيكةٍ للفرس، ولكن لهذا حكايةٌ أخرى .

وامتناد!

للضَبَابِ فلسفةٌ خاصة، يحجب عنك الرؤية حين يريد، ويفسح لكَ المجـالَ لترى حين تقترب، يغلف كل الموجوداتِ بغلافٍ غامضٍ ساحر، ويبعثُ في النفس قشعريرةً محببة، ثمَّ وبمنتهى العنف ينقشع عن ركبــانٍ غِضَابٍ، تئن خيولهم من فرط ما تحمله قلوبهم.

مجموعاتٌ صامتة كالصخر الأصم تتابع في هدوء وصمت، وقائدهم جريرُ أمامهم يرفع الراية ويحدوهم صامتًا ليلحقوا بالجريح وأصحابه، جراحات يوم الجسر لم تندملْ بعد، وربما مات الجريح قبل وصولهم، وقع حوافر خيولهم المتتالية كان متناغمًا والحمحمة المتعبة كانت تضم نفسها في لحنٍ ماتع، والتاريخ من بعيد يبري قلمه ليسطّر اليوم وبعد أيامٍ في القادسية صفحةً

بيضاءَ جديدة، أبطالها هم تلك المجموعة الصامتة، إنهم قبيلة بجيلة !

تتابعت على المثنى الإمداداتُ من المدينة ومن شتى أنحاء الجزيرة، وتوافوا إليه في جمع عظيم، كان اثنا عشر ألف رجلٍ مع المثنى في البويب، بينما جمع رستم جيشه في مائة ألف فارس وخمسين ألفًا من المشاة وجعل قيادته لمهران بن باذان، كان المثنى في البويب حين عَلِمَ أن مهران نزل في بَسُوسْيا فقال : «أكْدى مهران وهلك، نزل منزلًا هو البسوس» .

القائد المحنَّكُ تعلَّم من درس الأمس، فأرسل لمهران أن اعبر أنت إلينا النهر، كان الوقت رمضان، والنفوس خفيفة والروح في أشدِّ نشاطها، مع ذلك أمر المثنى جنوده بالإفطار ليقووا على عدوهم، وامتطى المثنى «الشموس»، فرسه، فرسٌ أدهم يستمد الليل منه، وتطلع بين عينيه الثريا، وهو فرسه الذي لا يركبه إلا لقتال، وطاف راكبًا بين الصفوف، يحضهم ويحرضهم ويلعب على أوتار نفوسهم، كان يقف على كلِ رايةٍ يقول لأصحابها : «إنِّي لأرجو ألا تؤتى العرب من قِبلكم»! يُشْعِلُ الجذوة في صدورهم ما استطاع، ويتركهم إلى غيرهم.

ما أشبه الصبح بالبارحة ! تصافَّ القومُ من جديد، وقائد اليوم المثنى، الذي لم تندملْ جراحُ أمس بعد، قال لجيشه إني

مكبِّرٌ ثلاثًا ثم احملوا على القوم في الرابعة، كبَّرَ الأولى، وعَجِلَ الفرسُ المسلمين وهاجموهم، مشهدٌ سيتكرر مع سعد في القادسية قريبًا، جدًا.

صاح الفرسُ صياحًا عاليًا، الحناجرُ الملتهبة قد تكسِبُ حربًا وحدها، لكن المثنى قال لهم : «إنَّ الذي تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همسًا»!

تلاطم الصوارم بالزَرْدِ أصمَّ الأرض والسماء، الصمت كان مفْزِعًا، كان يصمُّ الآذانَ لو كان شيءٌ كهذا ممكنًا، الفرسان ألقوا بأنفسهم في أتونٍ مستعِر، يسعِّره المثنى أكثر فأكثر، ضعضع الفرس صفوف بني عجل، فأرسل المثنى يقول لهم : «إنَّ الأميرَ يقرأُ عليكم السلام ويقول لكم: لا تفضحوا المسلمين اليوم !» فاعتدل القوم، وهاجموا قواتِ فارس واشتبكا في قتالٍ مرير خطبتْ فيه السيوف على منابر الرقاب حتى بُحَّ صوتها.

والبطل يفكر في مغامرةٍ خطيرة، يريد قتل قائد الفرس، فحمل على مهران حملة صادقة حتى دخل ميمنته، ورأي الفرس ما حدث فتدافعوا لحماية قائدهم، ولما انكشف الغبار رأى المسلمون تراجع قلب الفرس فاقتحموا الجيش يريدون الفتك به، حين رأى الفرس ألا مناصَ تسارعوا للهرب نحو النهر، لكن المثنى سبقهم فقطع عليهم الطريق دونه، وقتلَ بألفي مسلمٍ استشهدوا يوم الجسر مائة ألف فارسي !!

غبار الليلة السابقة الذي انقشع عن نصرٍ مؤزر للفرس انقشع اليوم عن نصرٍ مظَفِّر للمسلمين، وأما المثنى فقال بعد المعركة : «قد قاتلتُ العرب والعَجَم في الجاهلية، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألفٍ من العرب، ولمائة اليوم من العربِ أشدُّ من ألف من العجم، إن الله أذهب بأسهم، ووهن كيدهم، فلا يروِّعنَّكم زهاءٌ ترونه، ولا سواد، ولا قسي فج، ولا نبالٌ طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم، أينما وجهتموها اتجهتْ» !

كان المثنى بحقٍ بطلًا لحربِ استنزافٍ طويلة، ولو لم يكنْ له في التاريخ إلا معركة البويب لكان كافيًا، حتى إن ابن كثير قد عادَلَ معركة البويب باليرموك، ولولا أنَّ رستم كان قائد الفرس في القادسية لعَلا شأنُ البويبِ شأنَ القادسيِّة، امتطى المثنى فرسه من جديد في تكتيكٍ عسكريٍ عبقري، إذ أغار المثنى على أسواق الفرس في الخنافس وبغداد وهو يقول : «إن للغاراتِ روعاتٍ تنتشر عليها يومًا إلى الليل»، ولم يتركْ صهوة جواده حتى أدَّب بني تغلب وفتح الطريق لسعدٍ نحو القادسية، ونزل لمرةٍ أخيرةٍ من على ظهر «الشموس»، لن يمتطيه بعد الآن، أسلم الجريحُ روحه بهدوءٍ كما عاشَ بهدوء، ولولا بعضُ أخباره لطواه التاريخ كما طوى غيره.

ترك المثنى وصية لسعدٍ يخبره فيها ألا يلاقي العدو إلا بين القادسية والعذيب، وانطفأ سراجٌ من أشدِّ سُّرج العربِ توهجًا، لله درُّه، لو سبق القعقاعَ بيومٍ ما ذكرته العرب!

لا غرو إذن عندما حمي الوطيسُ واسْتكلَبَ الموت على الرجال في القادسية أن تهتف سلمى زوج سعد -وكان قد تزوجها بعد موت المثنى- قالت حين لم تجد المثنى يسود الأجناد والفرسان للجلاد صائحة «وامثناه! ولا مثنى اليوم للخيل، وامثناه! ولا مثنى للمسلمين اليوم! القوم أقرأنٌ ولا مثنى لهم» !.

رحل المثنى، ولا أخال أن الشموس ذلل ظهره لأحدٍ بعده، ولا أرى حُسَامه قد طوَّع ذؤابته لبنَانِ غيره، لله درُّك يا رجل، إيه يا ابن حارثة، لو عِشْتَ حتى القادسية لصنعتَ فيها ما لا يقدر عليه غيرُك، لكنك أفسحت المجال لقعقاعٍ وسعد، لطليحةَ ورجلٍ ثقفيٍ يُدعى أبا محجن.

جادَ البطل بروحه في سبيلِ عقيدته، مشيراً لسعد بمكانٍ نزل فيه التاريخ يريد تدوين القادسية، وربما تكون لهذا حكايةٌ أخرى.

حين انتصر المثنى واعتذر!

أتأتي معي؟

تعال، سنسافر معًا إلى أرض العراق، إلى أيام المثنى بن حارثة الشيباني، أنا أحبّ المثنى جدًا، ربما أحببته أكثر من حبّي لقادة كثيرين في التاريخ الإسلامي وأنا أقرؤه من ثلاثة عشر عامًا!

ربما ما ميز المثنى رغم قصر حياته العسكرية هو تعمقه في علم النفس العسكريّ، كان المثنى أستاذًا في هذا بحق، وهذا ما ميز حياته وتاريخه وتصرفاتِه فعلًا، ولعلّ أفضل ما يعين على فهم المقصد من كلامي هذا القراءة في تعامل المثنى العبقري مع أصحابه، كان المثنى بن حارثة يتفنن في إخراج أكبر قدرٍ ممكن من طاقة جنوده، وكان يفعل هذا ببساطةٍ منقطة النظير، كان

يعرف حدود قدراته وحدود قدرات جنوده ثمّ يتعامل على هذا الأساس، وقلّما خاب هذا.

تعال نقرأ بعض مشاهد من حياته، ثم نقف أمامه وهو يعتذر لجنوده...

• في معركة الجسر وكان المثنى فيها جنديًا في بدايتها لا قائدًا صمم أبو عبيد قائد جيش المسلمين أن يعبر الجيش إلى الفرس لا العكس، وكانت طامة كبرى على المسلمين فقُتل منهم من قُتل وغرق منهم من غرق، وحين وصلت الراية إلى المثنى انتخب حوله عددًا من الفرسان وحمى ظهورهم ليعبروا الجسر، وكان مخلصًا جدًا، صدره نقي صافٍ لا حقد فيه على تأمير أبي عبيد عليه ولا غرور، ولمّا كان المثنى هكذا، لزم على جنوده أن يكونوا مثله.

• بعد معركة الجسر كان المسلمون في وضعٍ لا يُحسدون عليه، مهزومون منكسرون، وقتل قادتهم السبعة وانفرط عِقد جيشهم، أخبرني أية قوةٍ وضعها اللهُ في المثنى ليقنع الجيش أن يخرج للقتال بعد أربعةٍ وعشرين ساعة فقط من الهزيمة!! فعلها المثنى حقًا، بعدما انتصر عليه الفرس انسحب بأربعة آلاف مقاتل إلى السماوة، وغاص في الأرض بعيدًا جدًا، وجيشُ الفرس يتتبعونه كأنهم ذاهبون إلى نزهة، ولما وصل السماوة كر عليهم في هجومٍ صاعق زلزل به الجيش المنتصر، وقتل قائديه!!

• قبل معركة البويب -وهي معركة عظيمة بالمناسبة- وكان المثنى قائدًا لجيش ممزق من المسلمين، طاف المسلمين على جيشه راية وراء اخرى، يقول لهم : «إنّي لأرجو ألا تؤتى العربُ من قِبَلِكُم» .. يشعل الجذوة في صدورهم ثمّ يتركهم إلى غيرهم، وكان يقول لهم : «والله ما يسرني اليوم لنفسي شيءٌ إلا وهو يسرني لعامتكم».. وقد كان فما استطاعوا أن يعيبوا له قولًا أو فعلًا.

• في البويب أيضًا حين اشتعلت المعركة رأى صفوف بني عجل وقد تضعضعتْ أمام هجمات فارس فبعث إليهم رجلًا يقول لهم : «لا تفضحوا المسلمين اليوم» .. وكأنّها كانت كلماتُ ساحر فقد اعتدل القوم من فورهم.

• وفيها أيضًا كانت الأعاجم تهجم على المسلمين وهم يصيحون صيحاتٍ عاليةً جدًا، فقال المثنى لجنوده بهدوء مثير للإعجاب : «إنّ الذي تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همسًا» ولمّا أصيب أخوه في منتصف المعركة صاح في المسلمين حوله : « يا معشر المسلمين، لا يروعنّكم مصرع أخي، فإن مصارع خياركم هكذا»

• بعد معركة البويب ابتدع المثنى تكتيكًا عسكريًا جديدًا، فقد رأى أن يهاجم الأسواق وأماكن تجمعات الفرس، ولكنه

كان جريئًا جدًا لأنه كان يهاجم ويوغل في أرض العراق دون أن يكون هناك غطاء يحمي ظهره، يشبه الأمر كفريق كرةٍ يهاجم بأحد عشر لاعبًا ولا يترك لمرماه مدافعًا واحدًا، ولما بدأ الناس يتهامسون بالأمر قال لهم : «إن للغارات روعاتٍ تنتشر عليها إلى الليل» ولو لم يكن في فهمه للنفوس إلا هذه لكفت، كان المثنى يعني أنّ غارات جيشه التي كان يقوم بها في أوقاتٍ محسوبة كان تثير الفزع في قلوب الفرس، لا يمكن أن يخرج جنديٌ واحدٌ بعدها في إثر جيش المثنى.

في الأخير أحببت أن أعرض لكم ما أحببتُه من المثنى.. تخيل أن يتنازل قائدٌ عسكريٌّ منتصر في معركة عظيمة قارنها المؤرخون بعظمة اليرموك، تنازل هذا القائد عن مكانته كقائد جيش ونزل للجند يعتذر لهم، كان المثنى قد غلا الدم في عروقه يوم البويب لذكرى المسلمين في الجسر، ولما رأى الانتصار قريبًا من المسلين ورأى الفرس يهربون من المعركة إلى النهر التف المثنى مع بضعة مئات من جيشه وحاصر الفرس من الخلف، فصار الفرس بين حد المسلمين وحديدهم، وهذا ضاعفَ رغبة الفرس في القتال، فبعدما كان المسلمون يقتربون من الانتصار وجدوا من الفرس شدة، وهذا أمرٌ طبيعي، أنت حاصرتَ قومًا لا شيءَ لديهم ليخسروه، حتى يعيش لا بد له من أن يحارب، فتمسكوا بالحياة أكثر فاشتدت الحربُ أكثر.

في الأخير أحبّ أن أقول لكم ولي... أنني دومًا ما أحب أختم مقالاتي عن المثنى بالمشهد هذا ..

فلمّا أتتْ القادسية وكان المثنى قد رحل، وقفت زوجته تصرخ بين الصفوف : «وامثناه! ولا مثنى اليوم للخيل» ... «وامثناه! ولا مثنى للمسلمين اليوم» ..

الحكاية الرابعة

حكايات خالد

(الميـــــــلاد)

هل حقًا يولد المرء حين ينزل من بطنه أمه؟ هل هذا هو الميلاد الوحيد للإنسان؟ أم أنّ هناك للإنسان الواحد أكثر من ميلادٍ واحد؟ .. أم أنك حين تجد نفسك حقًا تكون قد ولدتَ من جديد، حين تصل لما تصبو إليه وتحارب لأجله يكون هذا ميـلادك حقًا؟. وما بالك لو كنتَ ميتًا أصلًا وأحياكَ الله بالإسـلام؟

لمّا جاء النّهار يهدم عروش الظلام ويسحب البساط من تحت أرجل الليل ليعتلي العرش السماوي، ويُفيض على الكون كلهِ نورًا غاب لساعاتٍ طوال، كان هناك نورٌ ما في نفس خالد يشرق تمامًا كما أشرق النهار في الكون، وفي طريق ضيق نحو المدينة تقابل رجلان جادَ بهما الزمان مرة واحدة ثم عَقم، عمرو بن العاص يخبُّ الطريق نحو رسول الله، كان يحسب حساب كل شيء إلا

أن يُقابل خالدًا بالذات في هذا الموقف، هل يمنعه خالد؟ وماذا لو فشا في مكةَ أن عَمْرًا أسلم؟ لما تلاقتْ العيون قال له: «إلى أين يا أبا سليمان؟ فقال: والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبيّ، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ فقال عمرو: وأنا والله ما خرجتُ إلا لأسلم.»

أيّة روحٍ تلك التي تغيرتْ في خالدٍ حتى يتحول من أعدى أعداء الإسـلام إلى رجلٍ يقبله؟ وهو يعلم تمام العلمِ أن السنين القادمات ستحمل الإسـلام على أسنّة الرماحِ حتى يظهر؟

سارا في الطريق الطويل وحيديْن حتى دخلا على رسول الله، فأمَّا خالدٌ فقد سبقَ وأسلمَ قبل عمرو، ما إنْ دخل على رسول الله حتى تقدم إليه وبايع، لا أعلم ما الذي حجب خالدًا عن أغلب معارك المسلمين الأولى، اللهم إلا لطف الله به وبالمسلمين معًا، فماذا لو كان خالد مع قريش في غير غزوة، لكان للتاريخِ شأن آخر.

نعم، هو فردٌ واحد، حتى وإن كان قائدًا مُحَنَّكًا فهو لن يضاهي أبدًا جيشًا تقاتل فيه الملائكة، لكنّ الله علّمنا أن الأخذ بالأسباب طريق واضح إلى النّصر، ولن ينتصر المسلمين لمجرّد أنهم مسلمون، وإن حاربتْ الملائكة اليوم في جيش المُسلمين فرسول الله بين أظهرهم، فهل ينتهي الإسلام بموته؟ أم أنهم

سيكسرون أغماد سيوفهم للأبد حتى الممات؟. لابد إذًا أن يضم جيشُ المسلمين أبطالًا أفذاذ كخالد، وإلا لتلاعبتْ بهم الجيوشُ كما تشاء، خالدٌ سبب نعم، لكنّه سبب قويّ، الأخير والأهم أن الله لطف به حقًا لمّا ألقى نور الإسلام في قلبه، طريقٌ ما سيقطعه خالد، وسننظر من بعيدٍ نرى غبار الخيول والتماع الأسنّة ونحن نحمد الله أن الإسلام أنجب رجلًا مثله.

حين دخلَ الرجلان على رسول الله قال : « قد ألقتْ إليكم مكة بفلذات أكبادها». ولمّا تولى خالد قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيلك»

كان خالد إذًا على موعدٍ مع المجد، وعلى موعدٍ مع وسامٍ قريب سيضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه على صدر خالد، وموعدٍ آخر في ليل سكنَ سيكسر خالد فيه غمد سيفه، فكيف لمثله أن يُغمدَ سيفًا سلّه الله على المشركين؟ حتى الصباح الأول والفجر البكر لخالد في الإسلام سيكون مميزًا، وسنقف نحن جوار التاريخ نرقب، ونرى، ونتعلم، ونسكب دموعًا لا يحق لنا أن نسكبها على أحدٍ غير خالد، ربما نُكمل الحكاية يومًا آخر.

حكاية سَرِيّة

في الفجر يُولد كلُّ شيء، الكون نفسه يولد من جديد حين يشق سيفُ الفجر صفحة السماء المظلمة، وفجرُ اليوم سيولد فيه رجلٌ من أعظم رجالات الإسـلام. حين انبثق فجر يومٍ جديدٍ من أيام المدينة الغرّة كان صباح المسلمين فيها لا يُشبه أية صباحاتٍ سابقاتٍ، شيء ما في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبئ المسلمين أن الأيام القادمة لن تكون كتلك التي سبقتْ، فماذا يريد رسول الله من المسلمين لمّا أمر بلالًا بالنداء للصـلاة؟

سرُّ المسجد في أيام الإسـلام الأولى غريب، لا تستطيع فك طلاسمَ هذا السر أو أن تصل إلى إجابةٍ ترضيك بسهولة، اللهم إلا أن المسجد للمسلمين الأوائل كان كالحياة، من هنا تخرج

الجيوش، وهنا تُستقبل الجحافل المنتصرة، هنا تُقضى شئون الدولة الوليدة، وتولد قراراتٌ ستغير عمّا قريب وجه البسيطة للأبد، هنا تُكتب الرسائل لملوك الأرض، وترسى قواعدُ الإسلام الصارمة. الإسلام في سنينه الأولى يسير بخطى وئيدة لكنها ناجحة لم تفشل قط، والمسلمون حتى الآن آمنين مطمئنين؛ رسول الله بين أظهرهم وهو يدري ما يفعل.

تجمّع المسلمون من أطراف المدينة، ومن الطرقات الضيقة والبيوت الواسعة، نزل الساكنون عند الحرّتين حتى المسجد الذي بنوه بسواعدهم فقط، حين دخل آخرهم المسجد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا يقول للناس أن سريةً ما ستخرج من هنا صوب الشمال، تأديب الروم صار واجبًا على دولة المسلمين، الدولة القوية يهابها العدو ويضع لها ألفَ حساب، وحان وقتٌ تُذل فيه رقاب بني الأصفر لسيف الإسلام، الدولة وليدة نعم، ولم يمضِ حتى عِقد واحد على نشأتها، لكن من قال أن الضعفَ جزء منها؟ لا مناصَ إذن، امتشق رسول الله الحُسام فلا سبيل لإغماده أبدًا، لكنّ الرأي استقرّ أن يظل رسول الله في المدينة ويُخرج جيشًا يعيّن قادته بنفسه، يلتزم الجيشُ بما وضعه رسول الله ويعود، يعود وقد وُلد في فجر اليوم الأخير من المعركةِ قائدٌ جديد.

تحرّكَ الجيشُ الصغير، ثلاثة آلاف رجلٍ لم يكن أحدهم يدري ما الذي خبّأه القدرُ لهم، في طياته وبين صفوفه رجلٌ لم يشتد عوده في الإسـلام بعد، خالد يسير في الجيش تحت قيادة زيد بن حارثة وهو يشدُّ قبضته على سيفه، أول قتالٍ يخوضه في الإسـلام، ولم يكن أحد من المسلمين يعلم أنها الميلاد الحقيقي للعسكريّ الفذ. حين وصَ الجيشُ إلى مَعَان صُعقوا من هولِ ما أقدموا عليه، جيشُ الروم قوامه مائتا ألف رجل!! مائة ألف رومي ومثلهم من العرب المتحالفين، بأيّ مقياسٍ عسكري فدخول المسلمين معركة كهذه لا معنى له سوى أنّه انتحار.

حارَ النّاسُ فيما يفعلون، أيطلبون المددَ من المدينة؟ أم يُقدمون على ما أمرهم به رسول الله؟ لو نشبَ القتالُ فسيباد الجيشُ عن بكرةِ أبيه، وستكون كارثة على المسلمين لسنواتٍ قادماتٍ، والانتظار لا يقل خطرًا. فماذا إذن؟ ليلتان كانتا كافيتيْن ليتخذ المسلمون قرارهم، عبد الله بن رواحة قال لهم : «والذي نفسي بيده إن التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون، فانطلقوا لأمركم، فهي شهادة أو نصر». دقت طبولُ الحرب.

انحازَ المسلمون لمؤتة وصفّ الروم الجيش، ولو نظرتَ للجيشين من بعيد لافترّ ثغرك عن ابتسامةٍ ساخرة، هذا جنونٌ ولا شك، إذا اشتعلت لظى الحرب سيبتلع الجيشُ الروماني الثلاثة آلافِ مسلم في خطوة واحدة تأخذها الشمس نحو الغرب، كلّ الجيش

المسلم يعلم هذا ومع ذلك فصيحةُ زيدٍ سمحتْ لأمواج البشر بالتلاطم، دفع زيد اللواءَ للأمام وهو يحدو فرسه للاشتباك، زاد الفرس الأبلقُ سرعته أضعافًا حتى اقترب زيد من صفوف الروم الأولى، كان صوت ارتطام الفرسِ وصليل سيف زيد على زَرْدِ الروم عاليًا، ظلّ زيد يقاتل حتى تلاحمت الأجسادُ بالأجسادِ، وزلزل الأبطال في الصفوف الأولى قلوب الرومان الثابتة، رجلٌ واحدٌ من بعيد غارَ في صفوف الرومِ حتى أوغل بعيدًا، كانت يده تهدّ الأجساد وصيحته تُفزع الأرواح، يُقحم فرسه في الأعداء يبعثر الأبطال هنا وهناك.

كانتْ معركة مهيبة، قعقعة السيوف كانت عالية مزعجة للخيول، وغبار أرضٍ مؤتة غطّى الأنحاء، لكن رغم هذا فالكثرةُ تغلب الشجاعةَ إذا ما كان الشجاع شجاعًا فقط، شيءٌ بسيطٌ عزيزٌ فقط يُغَلِّبُ الشجاعة على الكثرة، فقط إن كنتَ داهيةً.

حاصرَ نصارى العرب وجيشُ الروم ثلاثةَ آلاف مسلم، وضعوا جيشًا بسيطًا في العدد بين المطرقة والسندان، وحاربوا بحنقٍ وغيْظٍ شديديْن، فترتْ حماسة المسلمين الأولى، وانهزموا أسوأ هزيمةٍ قد تراها، حتى لم يبقَ اثنان معًا، أول الذين وصلوا إلى صفوف الرومان الأولى، ذاك الذي يسمّى زيد، بقي يُقاتل حتى شاط في رماحِ القوم، تسلّم الرايةَ منه جعفر بن أبي طالب، أقحم

فرسه كصاحبه الذي صعدتْ روحه، ولم يزل يُقاتل حتى قُتل. وتبعهما عبد الله بن رواحة أسرع مما يتخيل.

زُلزل الجيش، جيشٌ انفرط عقده، يقاتل بعيدًا جدًا عن مقرّ قيادته العليا، هناك في أعالي البلاد، قتل قادته الثلاثة، والجيش كله ثلاثة آلافِ رجل، من يأخذ الراية؟ وأيّ المسلمين الذي قد يتحمّل همًا كهذا، يلقي ما بقي من الجيش في أتونِ الحرب فيباد عن آخره، أو يسحب المسلمين في هزيمةٍ نكراء؟

ثابت بن أقرم، رجلٌ ما من بني عجلان أخذ الراية وجالَ بعينه في الصفوف حتى وجدَ رجلًا مقتحمًا غائرًا بعيدًا بين أجساد الروم وحديد العرب، كيف يصل لمجنونٍ مثل هذا ليكلمه؟ لم يزل ثابت ثابتًا يراوغ حتى وصلَ إلى أبي سليمان وقال : «خذ يا خالد، فوالله ما أخذتُ اللواءَ إلا لك». صمتٌ مهيبٌ خيّم على ميدان المعركة، صمتَ المسلمون والرومان، وتوقفتْ لهنيهةٍ أصوات السيوف وحفيف السهام ووقع الرماح، لحنُ الراجمات انقطع، وصهيل الصافنات توقف، وصليلُ الصارمات خفُت، حتى ما تطايرَ من غبارٍ في سماء مؤتة صمتَ يرقب لحظة أتتْ في التاريخ مرة واحدة، التاريخ نفسه وقف جوار تلٍ بعيدٍ يشحذ قلمه ليكتب تاريخًا مستقلًا لخالد، لا يُشاركه فيه أحد، ولا يصلح له أحدٌ سواه.

الجيش في وضع صعب جدًا، والراية سقطتْ أخيرًا في يد داهيةٍ شجاع، صاح مرة أخرى صيحة أشعلت الحرب من جديد، ألقى الحديد المتبقي من سيفٍ ما تكسّر في يده، وسلَّ حُسامًا جديدًا أقسم وهو ينظر إليه ألا ينكسر جيشُ المسلمين وهو بعد يدبُّ على ظهر البسيطة، فماذا سيفعل؟ ربما تكون لهذا حكاية أخرى.

«هل أنزل الله على رسولكَ سيفًا فأعطاكه؟»

جرجة «رومانيٌ أسلمَ في اليرموك»

ليلُ الصحراء يختلف، حتمًا يختلف عن كل ليلٍ مرَّ عليكَ، ليلٌ له فلسفته الخاصة، صفحة سمائه السوداء المظلمة تكسر ظلمتَها نجومٌ على استحياء، سماءٌ تحادثك وتخبرك أسرار الكون الوليدة، هي نفس صفحة السماء التي شهدت من سنواتٍ مضتْ قِراعَ سيوف المسلمين والروم في سريةٍ ما تدعى مؤتة. كنا نسير هناك في قافلةٍ بدتْ وكأنها لا نهاية لها، يحدو الحادي إبل القافلة بلحنٍ شجيٍّ فتسير سيراً وئيدًا حتى يبزغَ الفجر فتتوقفَ إلى حين. حين سألتُ الحادي أخبرني أنه يومًا ما رأى خالدًا، وسمعه يقول للناس «عِندَ الصباح يحمدُ القوم السُّرى».

تركتُ لخيالي العنان، تركتُه يسبح ويسير بعيدًا بعيدًا، أيُّتها النّجوم قد رأيتِ خالدًا فصفيه لي، أيُّتها الرمال أخبريني كيف

كان حالك حين وطئتْكِ قدماه هنا، أيُّتها السّماء قد استظلَ بكِ وهو يهدُّ جيشًا من مائتي ألف فكيف كان، أيُّتها الجبال قد سمعتِ صرخاتِه حين تسلّم الراية فماذا فعل؟ زفرتُ زفرةً طويلة، حملتْ معها شوقًا وحبًا واشتياقًا لخالد، هلّا رزقتني يا الله بمن رآه ليُحدثني عنه!

«فيمَ كلُّ هذا التيه يا ولدي؟» أفزعني السؤال، أخرجني من خيالاتي إلى الصحراء والليل والنجوم، نظرتُ لصاحب الصوتِ فوجدته شيخًا صارعَ الدهر، ويبدو أنه كسبَ جولةً جديدة، له صوتٌ رخيم قوي، وعينان نافذتان تبوح بما في قلبه، هذا رجلٌ مثقل ولا شك. «لا شيءَ، كنت أتذكر خالدًا» أجبتُه. صمتَ وسرح بنظره بعيدًا جدًا، بدا كمن يتذكر سنواتٍ مضتْ، نظر إليّ وقال «تقصد ابن الوليد؟». «ومن غيره؟» زفرتُ من جديد ونظرتُ بعيدًا بدوري نحو تبّة بعيدة، لا بدَ أنها رأته يصفّ جيشَ المسلمين في آخر أيام مؤتة السبعة.

«أنا كنتُ هناك» نطقها وهو يشدُّ قبضته على لجام فرسه، صمتٌ وقد عُقدَ لساني وانتفض قلبي، ونسيتُ كيف أتنفس، تمالكتُ نفسي وقلت له «أنت كنتَ هناك؟ كنت مع خالد؟ «، «لا، كنت في العرب المتحالفين مع الروم، كانتْ معركة مُرعبة، ما إن صاحَ قائد الجيش فينا أننا قتلنا قادة الجيش الثلاثة حتى تراءى لنا أننا انتصرنا، حتى حملَ الرايةَ خالد».

اختلجَ قلبي، أصبحَ كمن يريد الخروج من سجن الضلوع، لا يعلم أين يذهب لكن صدري ضاق عليه يريد أن يحلّقَ ويُسقطَ ما علَق به.. سألته «من أنت يا عم؟»، قال بابتسامة هادئة «أخبرتُكَ يا ولدي، أنا رجل من العرب حاربتُ في هذه الصحراء ضد خالد، رأيتُه بعينيّ هاتين»، «هلّا حكيتَ لي يا عماه؟». نظرَ بعيدًا كعادته، وشدَّ قبضته أكثر وراح النور ينساب من فيهِ.

تسلّمَ خالدٌ الراية، واعتلى العبقري جواده من جديد، تحمل يمناه سيفًا ويسراه لواءَ الإسلام، يحمل همَّ جيشٍ قد مزقه العدو طيلة أيامٍ ستةٍ مضتْ، وقد اقتربَ الليل وسينفصل الفريقان حتمًا، لا يهمّ، كل ما يشغله الآن أن يحمل حملة صادقةً عليهم حتى ينفصلا فيلهمه اللهُ ما يُنجّي به المسلمين على يديه، دفع خالدٌ الراية للأمام كأنَّه يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تفتح على يديه، لكزَ جواده على طريقٍ طويلٍ سيقطعه خالد حتى الممات، ليصلَ به إلى أمرٍ قد قدره الله.

صفَّ جنوده من جديد، وصاح فيهم ليتمايزوا. ثُمّ كبّرَ واستحثَّ فرسَه ليُقدمَ على الصفوفِ الأولى للرومان، تطاير شعرُ جواده، وانتفشتْ جوانبُه وهو يعود نحو صفوفهم وحده دون بقيّة الجيش الذي يتسابق ليلحقَ بقائدٍ مجنون، حين اقتربَ من صفوف الروم الأولى أنزل الرومان دروعهم على الأرض واختبئوا وراءها، لمّا وصلَ لم تطرفْ عينه، أقدمَ وصدمَ الصفوف الأولى

وحده، صدمته لهم أطارتْ رجلين كانا يقفان خلف دروعهما، أنشبَ خالد القتال وحده، سعّر حربًا كادت لظاها تُهلك المسلمين.

صرختْ السيوف من جديد، وغاصَ ثلاثةُ آلاف مسلم في أمواجٍ متلاطمة من الرومان، مئاتُ الآلاف من أصواتِ وقع حوافر الخيول صنعت لحنًا مرعبًا، انتظمَ مع صليل الصوارم وصراخ الحناجر، حماسة خالد ألهبتْ صدور المسلمين ودفعتهم دفعًا للقتال. قاتلوا في اليومِ السادس قتالًا مريرًا دون انتصارٍ أو انكسار، لكن الألم كان عميقًا، يكفي فقدان القادة الثلاثة، حين غطستْ الشمس وراء الجبال القريبة انفصل الفريقان، ضمّدَ المسلمون جراحهم وجرْحاهم، وخالد يطوف على خيامِ المسلمين وفي نفسه مغامرةٌ خطيرة.

أبعدُ ما يُمكن أن يصل إليه المسلمون في موقفٍ عسكريٍ كهذا أن يعودوا إلى المدينة سالمين وقد أرسلوا رسالة للروم أن من يتعدى خطوط هذه الدولة الوليدة لابد له من تأديبٍ رادع، أمّا أن يكتسح المسلمون جيشًا فيه مائتا ألف رجلٍ فهذا ضربٌ من الخيـال، لا بد لخالد إذن من الانسحاب حتى يحميَ المسلمين، وينوءَ بأعباء الجيش الثقيلة، لكن الانسحابَ لابد له من أن يكون مُحكمًا حتى لا يباد الجيشُ بالكامل.

بدّل خالد ميمنة الجيش بميسرته، واستبدل رجال القلب برجالٍ آخرين، حتى المقدمة والساقة قام بتبديلٍ كليٍّ فيهما، كل هذا في ظلام الليل، وحين الفجر أمر جنده بالدوران بشكل سريع في دوائر ضيقة ليعلو الغبار، كما بدّل الراياتِ بأخرياتٍ. حين تصافّ الفريقان وجد الرومُ غبارًا يسد الأفق من ناحية الجزيرة، ورايات جديدة، ووجوهًا مختلفة، ومن بين ثنايا الغبار البعيد تخرج كتائب الفرسان في تنسيقٍ وإحكام، لا بد أن هذا مددٌ من المدينة لهؤلاء الجنود.

قد فعل بنا ثلاثة آلاف جندي الأفاعيل طيلة أيام ستة، فماذا يفعلون بعد هذا المدد؟ أدركَ خالد وأركانُ حربه ما أصاب الروم، فنادى خالد بهجومٍ عامٍ كاسح، حملةٌ واحدة صادقة ستضمن للمسلمين ما يريدون، ضعضعَ المسلمون صفوف الروم الأمامية، واشتعل القتال لليوم السابع على التوالي، قاتل المسلمون بحنقٍ شديدٍ، ورغبةٍ في ثأرٍ لقادته وأصحابه الذين رحلوا على أيدي الرومان. ساد الهرجُ صفوف الروم، فانهزموا هزيمةً قاسية، ووضع المسلمون سيوفهم حيث شاءوا.

صرخ خالد وهو يهوي بسيفهِ على عاتق رجلٍ من العرب، ثُمّ ارتطم سيفه بزردِ رجلٍ آخر فانكسر، ظلَّ يقاتل حتى وجد سيفًا يمانيًا رديئًا أشبه بالصفيحة، استمسك به حتى جاءت اللحظة التي يريد، كلَّ ما فعله خالد من الليل يهدف لشيءٍ واحدٍ فقط،

أن ينسحب المسلمون بهدوءٍ ودون خسارة روحٍ واحدة، بدأ الجيشُ ينسحب بهدوءٍ ويقظة، وخالد يسير بين صفوف الجيش ليُحكمَ نظامه ولا يختل، أما الرومان فقد أخذتهم الدهشة، وبقوا خائفين من ملاحقة جيش المسلمين في الصحراء البعيدة، لعلها مكيدة جديدة تُهلكُ منهم ما يوقعهم في فضيحة أخرى، يكفي ما أصابهم.

دبّتْ حوافرُ الخيول مسافة ستمائة ميل حتى المدينة، وخالد متيقظٌ يبثُ سراياه ليستطلع مكان الروم حتى لا يغافلوه، حين عبر خالد بجيشه صحراء جديدة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع على صدره في غيابه وسامًا .. كان خالد يمسح العرق عن جبينه حين قال رسول الله :»....حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليه».

طريقٌ طويلٌ بدأه خالد منذ مؤتة، تنتظره خطوةٌ جديدة سيقطعها البطل في مكة وحنين، لكن ربما تكون لهذا حكاية أخرى.

حكاية الرجلين

(حكاية خالد مع أبي بكر)

معنى أن تعيشَ في الصحراء أنّ ثمّة صداقةٍ عميقةٍ تربط بينكما، لا يعلم معنى هذا البساط اللامنتهي من الرمال الصفراء والغبار المتطاير والشمس اللاهبة إلا بني الفيافي وأرباب المفازات. أمّا أن تعيشَ في الصحراءِ وتشبّ مُصَارِعًا الأقران والخلّان فهذا شيء مختلفٌ تمامًا.

وخالد بن الوليد ربيب بيداء العرب، عاشَ وألِفَ الصحراءَ حتى صارت منه جزءًا لا يتجزأ، نحتتْ في نفسه أثرًا، وترك هو فيها ما لا يقدر عليه غيره، للفَلَواتِ في حياة خالد فلسفة خاصّة، كان ميلاده الحقيقي في صحراء مكة، وأول قعقعة سيفٍ في

إسـلامه كانت في بيداء مؤتة، ولمّا مضتْ به السنون قاتل في فَلَواتِ الشام وبريّات العراق، حتى البريّة السماوية كان لها مع الكون كله شأن ومع خالد شأن آخر.

حين عاد خالد من مؤتة وقبل دخوله المدينة بجيشٍ كاد يهلك هناك في أعالي الأرض، وما إن وصلَ إلى ضواحي المدينة حتى وجدَ المسلمين يهيلون التراب في وجوه الجنود والقادة، والحنقُ يسعّر نفوسهم فكيفَ لمسلمٍ أن يفرّ من الزحف، يقولون «أيا فرّار..فررتم». وخالد صامت، لو أنّ هناك إنصافًا في قلوب هؤلاء لما اتُهمَ بالتولي من الزحف، لو كانوا رأوا ما رآه الجيشُ لما تطاير الغبار في وجهه هكذا، لكنّ الوحي جاء ناصعًا يقيم كلًا في مكانه، فقال فيهم الرسول «ليسوا بفرّار ولكنهم الكرار في سبيل الله». كلمةٌ في موضعها تمامًا، كما كانت تلك الكلمة التي قالها قبلًا ومنح خالدًا لقب «سيف الله».

سلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلمَ حُسامًا لن يغمد أبدًا، ولله درّه، فترة إسـلامه التي قضاها بجانب رسول الله لا تتجاوز سنواتٍ أربع، مع هذا فقد قاتل شمالًا على حدود الشام، وجنوبًا في اليمن، وشهدت صحراوات العرب غاراتٍ انتشرتْ عليها روعاتٌ إلى الليل، شهد خالد أحد عشر مشهدًا في حياة رسول الله، قاتل في ثلاثة منها كقائد، ولستُ أدري من أين أتى بكل هذا الوقت. كان خالد -مع تأخر إسـلامه- موضعَ ثقة لرسول

الله وكان يقول عنه : «نعم عبد الله وأخو العشيرة، وسيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين».

وفي أحد أيام المدينة الحزينة غاصت الشمس وراء الجبل، سقطتْ وهي ترى آخر عهدٍ للنبوة بالأرض، رددت الجبال كلماتِ عمرَ حين علم وفاة رسول الله، شهقت القلوب، وانقطع الوحي عن الأرض للأبد، لم يثبتْ أحدٌ كما ثبتَ أبو بكرٍ، حَملَ لواء الإسلام بعد النبي، ولا أدلَّ على حبه للنبي صلى الله عليه وسلم من كلمته حين قال : « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله، ولو أن الطيرَ تخطفنا، والسباع من حول المدينة» ..

سارَ الخليفة الأول في طريقٍ طويلٍ، وخالد في ذهنه لا يغيب أبدًا، يعلم أن الجيشَ يحتاجه كما يحتاج الظمآن إلى الجداول، وكعادة خالد لم يخيّب ظنًا قط. كانت نقطة انطلاق خالد الحقيقية هي حروب الرّدة التي صقلتْ بطلًا عظيمًا. ارتدّتْ العرب وتنبأ بعضهم، وكان على أبي بكرٍ القضاء على أي خطر قد يهدد الدولة التي ما زالت وليدة بعد. كانت حروب الردة التي استمرت ملتهبة حوالي سنة كاملة أشد ما شهد المسلمون العرب في تاريخهم القصير، وأبرزت هذه الحروب معادن الرجال، وخالد بن الوليد لم يقم أي محارب مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكان مسرح البطل الرئيسي في منطقة بزاخة ببلاد بني أسد.

كان ممن تنبأ طليحة الأسدي، وكانت الأوامر العليا من قيادة المسلمين بقطع دابر القوم للأبد، ومن لها غير خالد؟

صباحات المعركة بالنسبة لخالد كانت ألذ إليه من ليلةٍ يُهدى فيها إليه عروس من الجنة. وإن عجبتَ فعجب خبر الخيول مع خالد، كانت خيولًا تسبق خيّالها، تسابق الجنود إلى الحتوف في انتشاء، وخالد يشير صامتًا إلى الظلال الوحيدة في صحراءٍ صامتة مثله، ظلال السيوف حيث الجنة، كان الصدام الأولّ لخالد في حروب الردة مع طليحة الأسدي، قومُ أسْدٍ كان لهم من اسمهم نصيبًا، سُمّوا أسْدًا ليفعلوا فعلة الأسد، وحقًا كانوا، فكانوا أصعب قومٍ على خالد من العرب طرًا.

كعادته كان خالد صاحب الضربة الأولى، وكعادة الخيول كانت تُقحم نفسها في الصفوف الأولى، ورغم شدّة القتال ما لبث غير ساعة حتى كان طليحة يحمل امرأته على فرسه وينطلق في الصحراء لا يلوي على شيء. وسبحان ربك العظيم، سنواتٌ قليلة وسيحارب طليحة هذا تحت راية سعدٍ حتى يفعل بأهل فارس الأفاعيل، وسيموت شهيدًا على ثرى الصحراء.

كانت نصرًا مهمًا في طريقٍ طويلٍ سيمضي فيه خالد إلى أبعد مما يتخيل هو نفسه. لم تكن حمحمات الخيول تهدأ بعد، حتى صدر الأمر القاطع إلى خالد بالتوجه إلى اليمامة، مسيلمة ظهر

أمره وقتل قائديْن من أعظم قادات الجيش المسلم، ويبدو ألا أحد سيُلفح في القضاء عليه سوى خالد، لم ينم خالد أو أحد من فرسانه، انطلق من البطاح حتى اليمامة، وفي روعه شيء واحد، لن ينكسرَ جيشٌ للمسلمين وهو يدّب على ظهر الأرض بعد.

كعادة خالد، صفَّ جنوده أول ما التقت الشمس بالسماء يبغيان نهارًا جديدًا، ويبغي خالد حربًا جديدة، كان وقودًا يُضّرم للحرب إشعالها، ويقدم للساحات أبطالها، ويلبس للحرب سربالها، وينفي عن الدار خُذّالها. دبّت أقدام الخيول أرض اليمامة، وضرب الجنود طبولهم، واختلجت القلوب في صدورهم، وصاح خالد صيحة كانت كافية. اشتدّت السواعد على السيوف، كان وقع السيف على السيف يعانق سماءاتٍ بعيدة، وحفيف السهام لحنًا يُطرب آذانًا خلقتْ لتسمع أصوات القتال لا شيء غيره. التقى القوم في عقرباء واشتد القتال، وتكسّرت السيوف من جديد في يد خالد، وهُزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد!

وكأنّ قدر خالد يسقطه في اختبار كهذا كلّما استحرّ القتل في الميدان، فصاح في القوم ليمتازوا، مشهد تكرر بأركانه الكاملة من سنواتٍ قريبة في مؤتة، وكما في مؤتة تمامًا، استقتل المسلمون، وما زالوا يضربون بني حنيفة ويكسرون صفوفهم واحدًا تلو

الآخر حتى أرغموا أنوفهم، وكان النصر بعد جهد جهيد لأنصار الله.

كانت حروب الردة من أعنف الحروب التي لاقاها خالد، لا سيما يوم اليمامة فقد كان قاب قوسين أو أدنى من القتل، ولكنه سيّف سلّه الله على المشركين قال عنه أبو بكر ما كنت لأشيمَ سيفًا من سيوف الله. بعد أيامٍ طوالٍ ترك خالد أرض اليمن وسارَ شمالًا حتى بوابات العراق، رحلة طويلة تنتظره هناك، سيحمل فيها السيفُ وحده، ويُذل الفرسَ وحده، ويدوّخ هرمز وحده، ولكن لهذا حكاية أخرى.

حكايا فارس

لا شيءَ في الحياة يضاهي جمال الخيل وهو ينهبُ الطريق الطويل نحو الحياة، الحربِ، المجد. لا جمالَ يفوق هذا إلا أن تجدَ فوق الفرسِ العظيمِ رجلًا أكثر عظمة منه، أن تجد فوق الخيل خالد بن الوليد!

بعد أن أغمد الصديقُ سيفه المسلول على المرتدين أمر خالدًا أن يحثّ السيرَ ناحية العراق، لم يُكذّبْ خالد خبرًا، لوى عنان فرسه ناحية العراق يتحسس الجواج بحوافره أرضًا وليدة، لم يضربْ المسلمون فيها بسيفهم بعد.

الفُرس، القوة التي أذلت الرومان والعربَ معًا في الجاهلية، أولئك الذين لم تعرف الرحمةُ أو الحياة طريقًا إلى قلوبهم،

لم ينصرفْ من خيال أيِّ عربيّ بعد حكايا الأجداد عن سابور ذي الأكتاف، الذي قتلَ أربعين ألفًا من العرب عن طريقِ خلع أكتافهم! وما زال صوتُ العجوز يتجدد في الآذان، صوتُ العجوز الواهن الذي قالت لسابور ذات زوال «إنَّ لهذا قصاصًا ولو بعد حين!» ولم يكنْ أحدهم يعلم أن الحين قد أتى.

الخيول تسير في خيطٍ طويلٍ منتظم من المدينة صوب العراق، على رأس الجيش خالد بن الوليد يسير منتشيًا كأنه ذاهب إلى عرسٍ له لا لقتال، دفع البطل لواءه للأمام، وأمسك بلوحِ التاريخ لينحيه جانبًا ويكتب هو صفحاته الخاصة، وحكاياته التي ستحكى للأبد.

في البداية توجه خالد نحو «كاظمة» وكان قائد الحامية فيها هرمز الخبيث، ولمّا كانت «كاظمة» هي بداية الحكاية في أرض العراق فإن خالدًا أبى إلا أن تكونَ بداية مختلفة. لما علم خالد أن هرمز وجه كافة قواته ناحية «كاظمة» ونزلوا فيها وحفروا الخنادق سار خالد من طريق مغاير وذهب ناحية مدينة تُدعى الحفير شمال «كاظمة». وعندما لم يجد هرمز لخالد أثرًا في كاظمة وعلم أنه اتجه ناحية الحفير أمر جيشه بالرحيل شمالًا لمواجهة جيش خالد، وكان أمره مقترنًا بأمرٍ آخر، فقد أراد أن

يصل إلى الحفير قبل خالد، ليستعد للقتال. أما خالد فقد أمر جُنده بالسير الوئيد البطيء حتى يسبقهم هرمز بجيشه إلى الحفير.

وصل هرمز بكتائبه إلى الحفير، وقسّم قواتِه وحفر الخنادق من جديد، ولما علمَ خالد من جنود الاستطلاع أن هرمز قد استقر في الحفير كرّ راجعًا إلى كاظمة مرة أخرى بأكبر قدرٍ ممكن من الضجيج ليُعلمَ هرمز بنيته، وصلت الأخبار إلى هرمز برجوع خالد إلى كاظمة فاستشاط غضبًا، وأمر جنوده المرهقين بالعودة إلى كاظمة مرة أخرى لصد خالد عنها.

وكان لخالد ما أراد تمامًا، وصل إلى كاظمة قبل عدوه بوقتٍ طويل، فعبأ جيشه وقسمه واستراح الجنود، ووصل هرمز! حال الجيشُ الفارسيُّ بين المسلمين وبين نهر الفرات فلما وصل الخبر لخالد قال « ألا انزلوا وحطوا رحالكم، فلعمري ليصير الماءُ لأصبر الفريقين وأكرم الجندين».

عند الصباحِ اشتعلتْ الشرارة الأولى بين الجيشين، وكانتْ الأبطال في جيش فارس قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا ينهزموا، دعا هرمز خالد للمبارزة فاستجاب البطل، لكنّ هرمز كان قد اتفق مع حاميته للغدر بخالد، مشى البطل مشيًا واثقًا

ناحية هرمز، وأنشب القتال وفوجئ خالد بحامية هرمز تسابق الريح إليهما تريد قتله فعلم أنه وقع في فخ محكم.

بين صفوف الجيش المسلم كانتْ عينان ثابتتان تراقبان الموقف، وما إن علا الغبار الثائر من سنابك خيول الحامية حتى أمر فرقته بنجدة خالد، كانت العينان هما عينا القعقاع بن عمرو، حمل على حامية هرمز فأبادها جميعًا، أما خالد فقد ذبح هرمز كالنّعاج ورمى برأسه للجيش الفارسيّ.

اختلتْ صفوف الفرس بعد قتل قائدهم فركبَ المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل! ولمّا انقشع الغبار الكثيف جمع خالد الغنائم ومنها السلاسل التي ربط بها الفارسيون أنفسهم وبعثها إلى أبي بكر، فسمّيتْ المعركة ذات السلاسل.

أمرَ خالد جيشه بالراحة أيامًا، ثُمّ خرج ناحية مدينة تُدعى الأبلّة، وكانتْ مدينة حصينة جدًا لا يُنفذ لداخلها بسهولة، ولما وصل إلى المدينة وجد أن أهلها قد تحصنوا بالمدينة ولا سبيل لهم، فدعا خالد أحد قادته يسمى سويد بن قطبة وأخبره بخطته التي وضعها، قال له خالد أنه سيخرج في وضح النّهار بأغلب جيشه متجهًا إلى الحيرة، فاطمأن الفارسيون وظنّوا أن خالدَ قد أجلّ اقتحام المدينة إلى وقتٍ لاحق.

عندما نثرتْ السماءُ لآلئها في الصفحة الكحيلة تسللتْ نسماتٌ خفيفةٌ إلى موقع المسلمين عند الأبلّة، ومعها تسللَ خالد وجنوده بهدوء ونظامٍ شديديْن، هدأ الليلُ وتصاعدتْ ذراتُ الغبار المسكينة إلى السّماء، وحين انتصف النّهارُ خرجَ الفرس لقتال سويد ظنًا منهم أنّه وحده. طوّح جنودُ فارسَ بسيوفهم وقسيّهم منتشين فما هي إلا ساعة من نهارٍ ويعودون بأسلاب المسلمين إلى الحصون، فلمّا قطعوا التلة العالية قاصدين الجيش المسلم وجدوا العساكر المسلمة كثيرة وهي في تعبئةٍ وتأهبٍ كاملَيْن، ثمّ علموا أن خالدًا في المُعسكرِ فأُسقط في أيديهم، وما رفعوا في وجه المسلمين سيفًا ولا رمحًا، وإنما رجعوا هاربينَ قاصدين المدينة ليحتموا بها.

اختلّ نظام الجيشِ الفارسيّ الثاني الذي قابلَ خالد، وتساقطَ الفرسان والخيول من التزاحم وعلا الغبارُ مجددًا، لكنّ خالدًا كان قد قطع الطريق المؤدي إلى الأبلّة وحال بينهم وبين حصونهم.

ألقي الرعبُ في قلوب الفارسيين بعدما وجدوا أن الفرقة التي تسدّ عليهم طريقَ الرجوع يتقدمها خالد بنفسه، دبَّ الذعر في القلوب، لكن كأيّ جيشٍ يقع بين شقي الرحى استقتل الفارسيون وقاتلوا قتالًا شديدًا، ولكنهم ما لبثوا أن انفرط عقدهم وتمزّق شملهم وكثر القتلُ فيهم، فما نجا منهم إلا من غرق في نهر دجلة!

سارَ خالد بعدها من نصرٍ إلى نصرٍ في سهولةٍ ويسر، كأنّه يحركُ قطعًا من الأحجار على رقعةٍ كبيرة تسمى العراق، فانتصر في الولجة وأجرى نهرًا من دماء الفارسيين ونصارى العربِ في ألّيس، ولكن لهذا حكاية أخرى.

حكاية أليس

صباح المدينة حتمًا يختلف عن صباح العراق، هناك في الأرض الواقعةِ بين حرتين نسماتُ الصباح وديعة تحمل معها حياةً وهدوءًا شديديْن، هواءٌ صافٍ لا يحمل غبارًا أو لهيبًا، جمالٌ شفافٌ ينفذ إلى صدركَ فيملؤه نقاءً لا تفهمه، أما صباحاتُ العراق فهي على العكس تمامًا، الهواءُ بطيءٌ ثقيل، تشعر أنكَ تجاهد جهاد الأبطال لتملأ صدرك به، يحمل معه الخوفَ والموتَ ورائحة الفرس!

أرض الفرسِ أرضٌ واسعة مترامية ضاربة في القِدم، الفارسيّ الأول هنا منذ سنواتٍ عصيةٍ على الحصر، منذ أن نزل هنا وأقام حياته قرب النهر، النهر الذي تلمع مياهه الرقراقة كلما غابتْ الشمسُ أو أشرقتْ، تشعر حين تنظرُ إليه للمرة الأولى أنه لا

ينتمي لهذا القبح حواليْه، إنما ينتمي لعالمٍ بعيدٍ جدًا عن هنا، المياه الزرقاء الشفافة لا تناسب أرضًا حمراءَ قاسية، إما أن تكون الأرضُ زرقاء كزرقة المياه، أو يكون النهر أحمر قانيًا!

بعد معركة الولجة القاسية التي قادها خالد مع فرسانه ضد الفارسيين نزل الجيش المسلم قرب النهر يحطون رحالهم وينتظرون التحركَ القادم لخالد بن الوليد، بلغتْ خالدَ أخبارٌ أن نصارى تغلب وبكر بن وائل يتجمعون مع الفارسيين ويستمدونهم بالجيوش ليقضوا على خالد ومن معه، وأمدهم كسرى بما أرادوا، فأرسل إليهم جيشًا كثيفًا من الفرس على رأسهم رجل يُدعى جابان، على أن تكون القيادةُ العامةُ للجيشِ له.

تجمّع جيشٌ عظيم من نصارى العرب ونزلوا عند النهر الأزرق، حطوا رحالهم ثمّ تجمعوا للطعام وفرشوا البسط وتنادوا أن هلموا إلى الغداء، أشار عليهم بعضُ رجالهم ألا يعجلوا لأن غبار السماء يحدثهم بوصول جيش خالد، لكن السواد الأعظم من الناس نزل إلى الغداء. حين قطعت الشمسُ قوسًا واحدًا ناحية الغرب كان خالد قد وصل بجنوده، وأجبروا الفرس على القيام عن طعامهم وابتدأ خالد القتـال.

كان أول من بدأ القتال من جيش جابان هو أبجر بن عبد الأسود وكان قائد العرب النصارى في جيش فارس، ولما رآه خالد

استشاط غضبًا وحز عنقه بعد ضربتين، علا الغبار وصاح خالد في جنده يأمرهم بالالتحام، صيحاتُ المسلمين كان عالية جدًا أصمّت الشمسَ عاليًا، صوت حوافر الخيول كان نغمًا لذيذًا في أذن خالد، ولحنًا مرعبًا في آذان الفرس، ألقى خالد خوذته على الأرض وغاص في رماح القومِ وسيوفهم وحده.

ومع ذلك ورغم قوةِ خالد وصدمته للفرس والعربِ المتحالفين منهم إلا أنّها كانتْ معركةً شديدةً جدًا قال عنها خالد فيما بعد أنّها أشدُّ معركةٍ لاقاها في أرض فارس، علا صوتُ القعقعة وطالتْ المعركة حتى سأم المسلمون والفارسيون وكان الفرار قريبًا من الفريقين، كان الجوّ عصيبًا جدًا وذكروا أن خالد نذر لله أن يجري من دمائهم نهرًا إن منحه الله أكتافهم.

وانتاب الفرس والنصارى الذعر لما رأوا ثبات المسلمين وشدة ضرباتهم، ففر أضعفهم قلبًا، واختل نظام الجيش الذي وضعه جابان، وما هي إلا سويعات حتى فرّ أغلب الجيش من وجه خالد وجنوده، وانقشع الغبار الأحمر عن نصرٍ عظيم للمسلمين، ونهرٍ أزرق أحاله خالد إلى نهر من دماءٍ حمراءَ قانية سالتْ من جثث سبعين ألفٍ من العرب والنصارى.

في هدأة الليل أطار خالد الخبر إلى أبي بكرٍ مع رسولٍ عاقل، فلمّا وصل الخبر إلى أبي بكرٍ قال في حق أبي سليمان كلماتٍ

برى التاريخ لها قلمًا مذهبًا ليكتبها، إذ إن أبا بكر قد جمع الناسَ وقال لهم : «أيّها النّاس، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النّساء أن ينشئن مثل خالد!»

أمّا خالد نفسه فمضى ينتقل من نصرٍ إلى نصرٍ حتى هرب أهل أمغيشيا من الرّعب حين علموا أن خالد بن الوليد يريد المدينة بأيّ ثمن، خمس عشرة معركةٍ حاسمةٍ قاتل فيها خالد في العراق بثمانية عشر ألفِ جنديٍّ لا غير، جابه جيوشًا تربو على مئة ألفِ رجل ولم يُهزم له في العراقِ جيشٌ واحد! حين غابت الشمسُ وراءَ جبلٍ بعيد استأذن رسولٌ ما على خالد فأدخلوه، عرفَ خالد فيه أثر السفر وعلمَ أن كتابًا من أبي بكر قد جاء، فتح خالد الكتاب وقرأه بهدوءٍ شديد ثُمّ افتر ثغره عن ابتسامةٍ غريبة.

«خـالد لها!»

أبو بكر الصديق

في المسجدِ النبويّ كان أبو بكرٍ يجلس يعالج شئون الدولة المسلمة الوليدة، جيوشُ المسلمين غابتْ أخبارها عن أبي بكر حتى تلاعبتْ به الظنّون، لاحتْ من الصديق التفاتة إلى باب المسجد فوجد ظل رجلٍ ينيخ راحلته، ولما دخل وسلم على أبي بكر الصديق علم أنه من رجال أبي عبيدة في الشام، كان للمسلمين خارج المدينة المنورة خمسة جيوشٍ، جيشٌ بقيادة خالد بن الوليد في العراق، وأربعة جيوشٍ في الشام يرأس أكبرهم أبو عبيدة بن الجراح.

فتح أبو بكر رسالة أبي عبيدة بجنَانٍ ثابت وعلم أن الروم يجتمعون في الشام لقتال المسلمين قتالًا فاصلًا وقد وصل

عددهم إلى مائتين ألف مقاتل!! أغلق أبو بكرٍ الرسالة وقال: «خالد لها! والله لأنسين الروم وساوس الروم بخالد بن الوليد»

صرف أبو بكرٍ الرسولَ واستدعى رسولًا يأمره بحمل كتابٍ منه إلى خالد بن الوليد من فوره، وبعد أيامٍ كان الرسولُ يقف أمام خالد يلمح على ثغره ابتسامة عجيبة، كان أبو بكر قد أمر خالد بتقسيم جيشه نصفين والرحيل من فوره إلى الشام ليمد أبا عبيدة في قتاله ضد الروم.

استدعى خالد مجلس حربه وعرض عليهم فكرته التي فاقتْ حد الجنون، من العراق إلى الشامِ طريقان، إما أن يتخذ الطريق العاديّ في اثنتي عشرة ليلة ويدخل الشام من حيثُ يتوقع الرومان وحلفاؤهم، وإمّا أن يتخذ طريق البريّة السماوية المُهلكة.

كان قرار خالد قاطعًا، سيقطع البرية السماوية رغم سمعتها السيئة، لكنه لم يُرِدْ أن يتعدَ حد الشورى مع المسلمين، كان مجلسُ أبي سليمان فيه كبار رجالات الجيش ومنهم رافع بن عميرة، وكان رجلًا حكيمًا قطع صحراء البرية قديمًا جدًا.

حذر ابن عميرة خالد بن الوليد من قراره، فالطريق لا ماءَ فيه ولا شجر، هو الهلاكُ بعينه، والجيش وإن كانَ تسعة آلاف رجل فقط ولكنّهم كلهم في رقبة خالد، فكيف يفعل لو نفد الماءُ

من الجند! ستكون الهلكة لا شيءَ غيرها، لكنّ خالدًا استطاع أن يشعل الحماسة في قلوب المسلمين بمن فيهم رافع بن عميرة نفسه!!

عطّشَ خالد عشرين من الإبل الضخمة عطشًا شديدًا ثمّ أطلقها على الماءِ فشربتْ شربَ الهيم، وكان يهدف إلى أن يستخدم هذه الإبل في الرحيل، فكلما نفد الماءُ نحر منها واستخرج الماءَ من بطونها، قسم الجيش نصفين ترك نصفه في العراق ثم رحل مع نصفه إلى الشام، تسعة آلافِ رجل يرحلون في أرضٍ تعيث فيها الأفاعي والحياتُ لا شيءَ غيرهما، لا حياةَ هنا سوى الموت! حتى السّماءُ صفحة زرقاء حمقاء لا سحبَ ولا غيثَ ولا ماء ولا شيء أبدًا.

بعد أيامٍ خمسةٍ نفد الماءُ واستخرجَ المسلمون كل الماءِ الذي في بطون الإبل، الشمسُ قطعة من الجحيم تحرق الجلود والراحلات، وتستنفذ الماءَ من الجسد، الشفاهُ مشققة والحناجر مشقوقة من شدةِ الظمأ، والأدلاء يقولون أن ثلثَ الطريق قد بقيَ، إنه الموتُ إذن!

لا نجاة تلوح في الأفق سواه، إن أرادَ أن يعود الجيشُ لن يعود قبل أيامٍ خمسةٍ كاملةٍ، والمضيُّ قدمًا شيءٌ غير مضمون، إنها أرضٌ قاحلة موحشة، لا يسير فيها إلا الموتُ بمنجله يحصد

الرؤوس في انتشاء. استدعى خالد رافع بن عميرة يشاوره فيما عليه فعله، علم خالد أن رافع قد مر في الطريق من سنين طويلة حين كان صبيًا، وقد رأى قرب الشام شجرة ينبع الماءُ من تحتها، فلو وجدها لنجا ونجا الجيشُ معه.

اشتعلتْ جذوة الأمل في صدر خالد وقرر أن يمضي إلى الأمام ولا يعود إلى الخلف خطوة واحدة، عند الأصيل سمع الرجال رافع بن عميرة يصيح، لقد وجد أثر الشجرة التي مر عندها من عقودٍ طويلةٍ جدًا، كانتْ الشجرة قد اقتلعتْ أو ماتتْ لا يعلمون، لكن أصل الحياةِ كان يتفجر من تحتها في جمالٍ لم يعهده الجيشُ من زمنٍ طويل.

كان الماءُ يتفجر من أصل الشجرة عذبًا شفافًا، كانت أجملُ شربةٍ دنيويةٍ شربها الرجال في حياتهم كلها، نجا المسلمون برحالهم، شربوا ورووا وارتوت خيولهم وإبلهم وأصرّ خالد على الرحيل وألا يبيتَ جنديٌ واحد في الليل، كان له مبدأ واحد «عند الصباحِ يحمد القوم السرى» وكم حمد القوم السرى بعدما ظهرتْ الشمسُ في السماءِ ناعسة خفيفة.

عند صباح اليوم السادس كانت خالد ومعه تسعة آلاف رجل يصلون إلى جيش المسلمين المرابط في الشام، احتضن أبو عبيدة أبا سليمان يهنئه بالوصول سالمًا، واختلط المسلمون القادمون

من العراق بالمسلمين المرابطين في الشام في انسجام غريبٍ على الأرض الطيبة.

كان الوضعُ العسكريُّ في الشام عصيبًا جدًا، وواضح أن الرومان ومن معهم من العرب مستميتون في الدفاع عن الشام، بل إنّ الرومان يريدون معركة فاصلة لا يقوم للمسلمون قائمة بعدها، لما علم خالد بالوضع التمعت في رأسه قرارت جديدة فرفع خوذته من على رأسه وهو ينظر في عينيّ أبي عبيدة وهو يقول له : «هل تطيعني فيما آمرك به؟» وعمّ الصمتُ أرجاءَ المجلس الحربي في الشام ينظرون إلى شفتي أبي عبيدة ينظرون كيف ستتحرك وماذا ستقول!

قلنسوة خالد!

إنّه الليل، الهدوءُ الغريب الذي يسيطر على الموجودات ويفرض عليها رداءه الكحيل، في مساحة شاسعة من الأرض تتناثر خيام المسلمين كنقاط من نورٍ ملقاة كما اتفق في لا نظام بديع، يكسر الضوءُ المنبعث من المصابيح ظلمة الليل على استحياء، في الهواء حذر ورائحة غريبين وهدوء عجيب، تشعر حين تنصت إليه أنّه هدوء يصيبك بالصمم!

في خيمةٍ لا تختلف كثيراً عن الخيام المبعثرة هنا وهناك كان يقف خالد بطوله الفارع يضع خوذته تحت ذراعه الأيمن وتنتصب قامته عاليًا، وتتعلق عيناه بشفتي أبي عبيدة ينتظر منه الجواب، كان خالد غاضبًا أشدّ الغضب على ما جمعه الرومان

من جنود يريدون أن يطردوا العربَ من الشام للأبد، فما وجد بُدًا من أن يؤمر نفسه على الجيش.

كانت القيادة لأبي عبيدة، لكن خالد عرض عليه أن يطيعه فيما يأمر به، لا أدري أي قوة شخصية تلك عند أبي عبيدة حين قال لخالد نعم أطيعك، محا حظه وجرد نفسه من صفة القيادة لأنه يرى أن خالد أقدر عليها منه!

تشاور خالد مع المجلس فيما يفعل، فوجد أن الوضع العسكريَ يُحتم عليه أن يصفّ جيشه بطريقة تجعله يبدو مَهيبًا، فالرومان يربو عددهم على المائتي ألف مقاتل، وخالد بعد المدد لا يتعدى جيشه الأربعين ألفًا، فقسمهم خالد في تنظيم عسكري يُسمى الكراديس، وهو تنظيم يُقسم الجيش إلى مجموعة فيها ألف مقاتل، لهم راية وقائد متصلٌ بشكل دائم بالقائد العام للجيش.

أسلم خالد ومن معه أجسادهم لنومٍ خفيف يقويهم على القتال حين تطلع الشمس، في صباحات المعركة نهض البطل نشيطًا خفيف الحركة منتشيًا، ويكاد من حوله يقسم أن خالد يبدو كالمُقدِم على الزواج لا على القتال!

تصافّ الجيشان، ومشى خالد حثيثًا بين الصفوف خارجًا إلى ماهان قائد الجيش الرومي، كان بطارقة الرومان قد حذروا

قائدهم أن يستخف بخالد، ولم يسمع لهم وأمر خالد أن يعود من حيث أتى، فقال له خالد «إنّا قومٌ نشربُ الدماء، وقد بلغنا ألا دم أطيب من دم الروم!» ثم لوى خالد زمام الجواد عائدًا إلى الصفوف.

لكز البطل جواده وصاح من فوق فرسه أن هبّي يا ريح الجنّة، وحين وصل إلى الجيش أمره بالهجوم العام في النظام الذي وضعه عشية ليلة المعركة، تدفق المسلمون في أمواجٍ متلاطمة، وعَدَتْ الخيول إلى مقاتلها وصهيلها يبلغ عنان السّماء، يتقدم هؤلاء خالد يقود فرسه في جنون، وقع الصدامُ الأولُ بين الصفوف التي تحاصر خالد من اليمين والشمال.

فصاح أحد المسلمين أن اللهَ أكبر، ومع صيحته أبصر خالد الجنان تنزوي تحت ظلال السيوف، صار الصوتُ أعلى، ولما كانت الأرض منبسطة فإن خالد ومن معه بدا لهم من الرومان ما لم يكونوا يحتسبون، كان القتال ضاريًا يرسم فيه جيش المسلمين صورًا عجيبة من التضحية، ولا دليل على ذلك من استشهاد ابن أبي جهل تحت حوافر الخيول!

اندفع خالد يدق الصفوف في حنقٍ شديد، ولكم أرهق الرجل حاميته التي تقع على عاتقها وظيفة قاسية وهي حماية القائد

العام للجيش، كان خالد يدفع بنفسه وسط الصفوف لا يبالي بالحِراب التي تنتهش لحمه مسعورة.

في هدأة من المعركة انفصل خالد عائدًا إلى الصفوف، حين التأم مع جنده أبصر جنود الرومان يهجمون هجومًا عامًا كالسيل والليل يدقون الطبول ويرفعون الصلبان ويثيرون الغبار عاليًا، وسمع رجلًا من المسلمين يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!» فقال خالد : «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، أبالروم تخوفني؟ والله لوددتُ أن فرسي الأشقر براء من مرضه وأن الروم أضعفوا في العدد»

ثم صرخ خالد عاليًا : «أيّها النّاس، لم يبقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدة الشدة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو الله أن يمنحكم أكتافهم. وكان خالد حينها في ألف من الفرسان خلف جناح الجيش الأيمن، وحين أبصر تخلخلًا في الصفوف الأماميّة للروم أمر خالد فرقته بالهجوم العام!

شُده المسلمون في فرقة خالد لهنيهة! إنهم ألف فارس وخالد لكز الأشقر ليهجم وحده على نصف الجيش! رجل واحد فقد خوذته وقلنسوته يقود جوادًا مريضًا نحو مائة ألف روميّ!!

ألجم الموقف المسلمين لهنيهة من زمن ثم وجدوا ألا مناصَ من اللحاق بقائد الجيش، وصل خالد أول ما وصل إلى الصفوف الأماميّة فتصافح معهم بالسيوف واعترض خالد نصف الجيش وحده، وما لبث أن التحق به بقيّة الجند.

الغريب أن الرومان في الصفوف الأولى فروا من خالد فرارهم من الآساد، لا تعلم لمَ فرّ الرومان من أمامه، ربما شيءٌ في الأرض الغريبة عنهم شعروا معه أنها تلفظهم للأبد، ربما صيحة خالد التي أقسموا أنها شقت السّماء، ربما عيناه اللتان كانتا تصبان جحيمًا متدفقًا عليهم، لا تعلم لكنهم فروا من أمامه كالجرذان.

ساعاتٌ بسيطة كانتْ كفيلة لخالد وجنوده بقتل نصف الرومان ومطاردة فلول المنهزمين، وانتهت حكاية الرومان في الشام للأبد، وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا حانقًا حتى تكسرتْ السّيوف في أياديهم. في المجلس الحربيّ كان خالد حزينًا مهمومًا لا يبدو كقائدٍ خرج من انتصارٍ عظيمٍ سمّاه التاريخ اليرموك، فلمّا رأى المسلمون تجهمه صمتوا حتى تخرج الكلماتُ وحدها من فيِّ خالد، فقال لهم : «إنّي قد فقدتُ قلنسوة لي فاطلبوها»

فطاف القوم طويلًا في أرض المعركة ولمْ يجدوها، فكان خالد في همٍ عظيمٍ، وحين الغروب أتى له جنديٌ يبشره أنه وجدها، ولعجب المسلمين كانتْ قلنسوة قديمة فكأنهم استغربوا همّ

خالد على مثلها فقال لهم: «اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معه إلا ورزقت النصر»

مارس المسلمون المنتصرون أعمالهم الطبيعية بعد انتهاء المعركة، فدفنوا الشهداء وجمّعوا المصابين للعلاج، وحين كان خالد يناقش أبا عبيدة في الخطوة القادمة للجيش أتى رسولٌ من المدينة يستأذن عليهم، دخل الرسول يسلّم الرسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح، تجهم عظيم علا وجه أبي عبيدة وفرتْ من عيناه دمعتان ساخنتان، مات أبو بكر! غاب القمرُ الأعظم للمسلمين بعدما غربتْ شمسُ النّبوةِ، ولشدُّ ما صُدم أبو عبيدة من نصف الرسالة الآخر.

لقد تولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين، وكان قراره الأوّل هو عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش، تلقى خالد الخبر في هدوءٍ شديد، فلله درُّه حين عُزل وهو في المعركة وفي أوج انتصاره ما ترك العزل في نفسه أثرًا، بل قال إنه كان قائدًا أو مرءوسًا فلا فرق عنده. فأيّة روحٍ هاته التي تستل النصر من أنياب الرومان ثم ترضى للعودة إلى صفوفِ الجنديّة بكل هدوءٍ وإخلاص.

كان الخبرُ صاعقًا على المسلمين خفيفَ الوطأة على روح أبي سليمان، لكن الجسد المُنهك كان قد قرر التخلي عن الروح الوقادة ومن ثمّ الرحيل للأبد.

فلا نامتْ أعين الجبناء!

خالد بن الوليد

في الطريق من دِمشقَ إلى حمص شمالًا كان ركبٌ ما مليئًا برجالات العرب وفرسانهم، وقد تحجرت الدموع في العيون، واختنقت الأصوات، وصار التنفس عسيراً من ثِقل الروح وتشتتها، والركب واجم كأن على رؤوسهم الطير. سماءُ حمص التي تلبدتْ بالغيوم كانت هي الشاهد على ما يحدث في أحد طرق المدينة، الهمساتُ تتعالى حتى تصيرَ صراخًا، خالد يموت!

يالله! كبارُ الصحابة يرتبهم الموت في سلسلةٍ تبدو وكأنها لن تنتهي أبدًا، واليوم خالد بن الوليد حلقة في السلسلة، والرجل نسيجُ وحده، لا يعدل به المسلمون أحدًا أبدًا، وإن كان عمرُ قد

عزله عن قيادة جيوش المسلمين وهو في أوّج انتصاره فإن أسبابه لا تخفى على ذي عقل.

واليوم بعد ستين عامًا قضاها الجسد المسجَّى هنالك ها هو يلفظ أنفاسه الأخيرةَ ويُسلم روحًا وقادةً آن لها بعد جهادٍ مرير أن تستريح، روحٌ حملتْ لواءً للبطولة في الجاهلية والإسلام، فخاض صاحبها مائة معركةٍ لم يُهزم قط!

ولا يصلح إطلاقًا أن يتحدث الناس عن حياةِ خالد وهم يذكرونه في جاهليته، حياة خالد الحقيقية بدأت يوم أن مد يده لرسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعه على الإسلام ولا شيء غيره، الجسد المسجى هنالك بدأ أولى صولاته منذ أسلم، فلم يمضِ كثيرُ وقتٍ حتى أعلن الرسول أن المسلمين ذاهبون لتأديب الروم في مؤتة، وكان للبطل نصيبٌ، فقد خرج جُنديًا مقاتلًا عاديًا، لا يعلم أن الأقدار تخبئ له وللتاريخ تاريخًا خاصًا لن يُكتبَ إلا باسم خالد فقط.

دارتْ رحى الحرب واستعر لهيبها، وخالد يومئذ قد شحذ كل همته ليدافع عن هذا الدين كما شحذها من قبل ليقاتله في أحد، الكهلُ صار مجنونًا في ساحة الوغى، وكأنَّه ذاهب إلى عُرسه دخل المعركة منتشيًا مبتسمًا، لا يظهر عليه العجزُ دون نيل المنى، ولو رأى المنايا في أمانيه لما تردد عن إقحام نفسه فيها

بكل ما أوتي من قوة، ولأنَّه على قدر أهل العـزم تأتي العزائم كانت أولى معارك خالد في الإسـلام علامة فاصلة في حياته وحياة العسكرية المسلمة الوليدة، ستة آلاف مُسلم امتشقوا الصوارم في مواجهة جيشٍ قوامه مائتا ألف مقاتل!

يالله ! وكأن الأرض نفسها تعلم ما يدور على ظهرها، أخبرني التاريخ أنه سمع للأرض يومها صمتًا لم يسمعه قط، صرخة واحدة كانت كفيلةً لشق صمتٍ مدوٍ، وكفيلة بأن تخطب السيوف على منابر الرقاب كيف شاءت، وبأن تشق القنا الأعناقَ بلا رحمة، وبأن تختار السهامُ العمياءُ ضحاياها وقتلاها دون تفرقة لمدة ستة أيام كاملات، أكلت من المسلمين كل هِمةٍ وصبر، وأخذت منهم قادتهم الثلاثة، وانكشف ظهر المسلمين وانهزموا أسوأ هزيمةٍ قد تحدث لجيشٍ غازٍ حتى لم يبق اثنان معًا.

ولما استقر جسد ابن رواحة على أرض مؤتة وصعدت الروح للجنان كادت الراية تسقط لولا يدُ رجلٍ يُدعى ثابت بن أقرم، رفع الراية وعيناه تجول بين الصفوف حتى وجد غبارًا عظيمًا وفارسًا يشق الغبار وعلى حد سيفهِ دماءٌ خرجت من وريدٍ ما للتو، فدفع ثابت الراية إليه وقال : «خذ يا خالد! فوالله ما أخذتها إلا لك».

واعتلى العبقري جواده ودفع الراية بيمينه إلى الأمام كأنما يقرع أبوابًا مغلقة آن لها أن تفتح على طريقٍ طويلٍ سيقطعه

البطل وثبًا وثبًا في حياة الرسول وبعد مماته حتى يبلغ أمرًا قد قُدرَ له، وانسحب البطل ببقيةٍ من جيش المسلمين في أروع انسحاب عسكري عرفه التاريخ، وانكسرت لشدة القتال في يديه تسعة أسياف، وحُقّ أن يُسمى من يومها سيف الله.

هز البطل لواءه للأمام في حياة الرسول فكان صاحبَ أشهر خبرٍ في فتح مكة، ويده التي هدمت العزى صنم العرب، وكان همَّ رسول الله في حُنين، ثم هز سيفه بعد مماته فصار ساعدًا للصديق في أيام الردة ولا يحكي التاريخ أن أحدًا من قادة المسلمين قتل من قادة الردة كما فعل خالد، وتركَ في كل مرحلة من مراحل المسلمين في العراق حكايةً يحكيها التاريخ منبهرًا متقطع الأنفاس.

إن خالدًا مع الفرس قد زاد جنونه الحربي أضعافًا مضاعفة، ولولا أنني كنت هناك أرقب من تلٍ بعيد ما يفعل البطل ببني مجوس لما صدقتُ كل هذا، خالدٌ في بضع سنين سطّر صفحاتٍ كاملةً من التاريخ وحده، في كاظمة دوَّخ هرمز وأذنابه ثُم ذبح هرمز ورمى للمجوس برأسه، ورأيت أطلال مدينة تُدعى الأُبلَّة قال لي رحالة ما أن أهلها ما إن سمعوا اسم خالد حتى فروا منها وذيولهم بين أفخاذهم، أحد نسور الجزيرة أخبر ركبًا يسير في صحراءٍ مترامية أن خالدًا نذر لله يومًا أن يُجري نهرًا من دماء المجوس في أُلَّيس، وقد أبرَّ قسمه، وسمعتْ الجبالُ أبا بكرٍ بعد

هذا النصر وهو يقول : «يا معشرَ قريش، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد».

السماء أيضًا رددتْ يومًا كلماتِ الصديق لما قال : «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد» وقد كان، وقد حكتْ الصحراء للراكبين أن البطل يوم اليرموك أمّرَ نفسه على الجيش وأقسم أن يشرب من دماء الروم وقد فعل، وحين سوى الصفوف وألهب حماسها لوى البطل زمام جواده عائدًا إلى صفوف جيشه يُقسم ألا يكون حين ينقشع الغبار إلا صائحٌ يصيح أن الله أكبر، وصرخ عاليًا مؤذنًا بالقتال، فهبتْ رياحٌ عرفها المسلمون أنها رياح الجنة، وهرب الكل من حر الدنيا إلى ظلال السيوف حيث الجنة، وجاء صوتٌ من بعيد لعكرمة يقول في المسلمين بصوتٍ مبحوح : «يا أيُّها المسلمون! لطالما قاتلت الرسول قبل أن أُسلم، أفأفر من أعداء الله اليوم!؟».

ولما انقشع الغبار آخر اليوم كان الصائح يصيح أن الله أكبر، ورسولٌ من عمرَ بن الخطاب بعد نصرٍ مؤزرٍ أن خالدًا عُزل من قيادة جيشٍ قاده حتى النصر، فنزل البطل من صفة القائد إلى صفة الجندي العادي، يبذل أقصى طاقته هنا أو هناك، يُعلم المسلمين أن المؤمن لا يُغير عقيدته إنما يغير موقعه.

وإن سألت عن الحب، فأعجب حُبٍ كان خالد يُحبه، يُحب ظلالَ السيوف، قعقعة الحسام وحفيف السهام لا يعدل بهما

خالد أي لحنٍ في الدنيا، ويقول: «ما من ليلةٍ يُهدى إليّ فيها عروس أنا لها محب أحبَّ إليّ من ليلة شديدةٍ البرد كثيرة الجليدِ أصبِّحُ فيها العدو».

اليوم آن للجسد أن يشعر بوطأة كل هذا، ويُعلن الرحيل أخيرًا، نحيب المسلمين على عتبات حمص ما زلتُ أذكره وكأنه كان أمس، تنهيداتُ الضعفاء التي كانت تخرج حاملةً معها لهيب فقد خالد ما زالت تكويني، هزني مرأى التاريخ يبكى ولم تجف عيناه من نعي الصديق بعد، شهقات الثكالى وصرخات الأيامى تركت في القلب جُرحًا لا يبدو أنه سيندمل، يرحل خالد اليوم ويترك ظهر المسلمين مكشوفًا، وحتى مع كل هذه الأبطال التي ذخر بها جيلٌ مثالي فلن يعدل أحدهم خالدًا.

شغلني كل هذا حتى سمعتُ منه أنينًا وبكاءً، ووجدته يقول:

«لقيتُ مائة زحفٍ أو زهاءها، وما في جسدي موضعُ شبرٍ إلا وفيه طعنة بسيف، أو رميةٌ بسهم، أو طعنةٍ برمح، وهأنذا أموت حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء» .

أما روحه وريحانه فيوجدان دائمًا وأبدًا حيث تصهل الخيل وتلتمع الأسنة وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة، لكأني بفرسك جاءت لها صهيلٌ يصدح، يقودها عبيرك وأريجك

وتسفح من مآقيها دموعًا غِزارًا، أيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد؟ وهل ستذلل هي ظهرها لأحدٍ بعده؟

إيهٍ يا بطل كل نصر ويا فجر كل ليل، لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزحف بقولك لجندك « عند الصباح يحمد القوم السُّرى» حتى ذهب عنك مثلًا، وهأنت قد أتممت مسراك، فلصباحك الحمد، ولذكراك المجد والعطر والخلد يا خالد.

الحكاية الخامسة

حكاية
المدينة التي فُتحتْ بلا قتال

لمّا شمّ القومُ رائحة الصباحِ عند أسوار المدينة الحصينة كان قُتيبة بن مسلم الباهلي يتسلل مع جنوده من شقٍ صغير في سورِ سمرقند، جنّة اللهِ في الأرض، كانتْ سمرقند إحدى القلاع التي صَعُبَ على المسلمين فتحها لوقتٍ طويل، حتى أنَّ قتيبة بن مسلم وهو أحد أكثر قادة التاريخ عبقرية لم يستطع أن يفتحها بعد!

كانتْ سمرقند مدينة حصينة جدًا، تغلّفها أسوارها كأمٍ رءوم تحتضن وليدها في غارة مشئومة، ولمْ يجدْ قتيبة بُدًا من الخدعة حتى يفتحها، حين نزلَ للمرةِ الأخيرةِ حول أسوار المدينة الغرّاء علمَ أن هناكَ مُدخلًا يستطيع أن يتسلل منه مع جنوده إلى ساحات المدينة العظمى.

في ليلةٍ غاب عنها النُّورُ والقمر تسلل إلى الداخل مع جنده، لمْ يدعُ القوم إلى الإسلام ولم يمهلهم أيامًا ثلاثة، وإنما تسلل للمدينة في الليالى الأولى للحصار، عندما ظهرت الشمسُ كان

جند قتيبة قد اكتملوا داخل الأسوار، تنادت الحامية الصغيرة للمدينة، فلم يأخذ القتال سوى سويعاتٍ قتل فيها المسلمون المحاربين وتمكنوا من القلعة حق التمكن.

أمّا الكهنة فقد هربوا من الفاتحين الجدد لاجئين إلى مغارةٍ بعيدةٍ في كهف تملؤه الهوام، وتذاكروا ما بينهم حين انبرى أحدهم وقال : «إن للمسلمين نظامًا في كل حربٍ يدخلونها، فإنهم يدعون أهل المدينة إلى الإسلام ثلاثة أيام، ويخيرونهم ما بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، وهم لم يفعلوا هذا، فلو أننا أتينا أمير المؤمنين في دمشق عرضنا عليه الأمر لربما أنقذنا»

وافقه الكهنة على الفور، وأرسلوا يحضرون أحد أهل سمرقند ممن يعرف العربية، فكتبَ كتابًا لعمر بن عبد العزيز وانطلق من فوره إلى دمشق، امتى جوادًا قويًا وامتشق سيفًا وراح ينتقل من بلدٍ إلى بلدٍ حتى وصل إلى دمشق. خطا بجواده إلى الشوارع البِكر، الأحياء البسيطة الهادئة، والجوّ المعتدل الرائق، وظل الرسولُ ينتقل من حيٍّ إلى حيٍّ يخشى أن يسأل عن دار السلطان حتى لا يتهمه أحد أنه جاسوس فيُقتل!

سار حتى أعيته قدماه ولمّا وجد أعظم بناءٍ في المدينة دخله، فوجد قومًا يخرجون ويدخلون، ووجد حلقاتٍ في ساحاتِ هذا البناء، وأناسًا يركعون ويسجدون فلم يعلم أين هو، ثم تجرأ

وسأل أحدهم: أهذه دار الوالي؟ قال: لا بل هو المسجد، فهل صليت؟ قال الرسول: وما صليت؟ قال: وما دينك؟ قال: على دين أهل سمرقند. ثم إن الرجل لم يزل بالرسول حتى أسلم!

فلمّا أسلمَ قال له: دلني على بيت السلطان. قال: تعني أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: اسلك هذه الطريق إلى آخرها تجد بيتًا من طين فهو ذا. قال: يا عبد الله لا تهزأ بي! أريد السلطان! قال: تجده هناك إن شاء الله.

فذهب الرجلُ إلى آخر الطريق فوجد رجلًا يأخذ طينًا من امرأة ويصلح بيته، فألجم الرجلُ وعاد إلى المسجد يسأل الذي دله، فما إن وجده حتى قال له: يا أخي يرحمك الله، أسألك عن أمير المؤمنين تدلني على بيت رجلٍ طيّان!! قال: هو ذا أمير المؤمنين!

انعقد لسان الرسول! أميرُ المؤمنين؟ أيّ أمّة هاته! أميرها رجل يسكن بيتًا من طين، ويصلح بيته بنفسه هو وامرأته! أهذا يعقل؟! طرق الرجلُ الباب، فنزل الرجل ودخلت المرأة وغسل أمير المؤمنين يديه ورحب به، وقال: ما لك؟ قال: هذه رسالة من أهل سمرقند. فتناولها عمر وقرأها، ثم إنه قلبها وكتب على ظهرها «من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عامله بسمرقند، أن نصّبَ قاضيًا لينظر فيما ذكره. ثم ختم الرسالة وأعطاها له.

فخرج الرجلُ يقول في نفسه والله لولا أن أهل سمرقند يكذبونني لألقيتُ بالرسالة على قارعة الطريق، فما تفعل رسالة بسيطة في إخراج جيوشٍ كاسرة، وإثناء قائد مسلم دوخ الأرض وراءه!

ثمّ رحل، كلما نزل بلدًا صلى في مسجدها حتى وصل إلى سمرقند، ولمّا أعطى الرسالة للكهنة أسقطَ في أيديهم وأظلمتْ عليهم الدنيا، الخيط الأخير الذي كانوا ينتظرونه لينقذوا مدينتهم خيطٌ واهٍ! ثم إنهم لم يجدوا بُدًا من إخراج الرسالة إلى خليفة قتيبة بن مسلم وكان قتيبة قد مات، فنصب قاضيًا يحكم بين الفريقين، فلما اجتمعوا قال القاضي لكبير الكهنة: ما دعواك؟ قال: إن قتيبة قد دخل مدينتنا دون أن ينذرنا أو يدعوا إلى الإسلام ثلاثًا! فقال القاضي لخليفة قتيبة: أنت ما تقول؟ قال: لقد كانت مدينتهم حصينة! وخشي قتيبة إن أمهلهم فقد المدينة.

فقال القاضي: إنما خرجنا مجاهدين في سبيل الله ننشر الإسلام وما خرجنا فاتحين للأرضِ أشرًا وبترًا.

ثم قضى بإخراج المسلمين من المدينة على أن ينذرهم قائد الجيش إن أراد معاودة فتح المدينة!! وحين الغروب كانت رايات الجيش الإسلامي تغادر المدينة إلى الطريق، ووقف أهل المدينة

وكهنتها ينظرون إلى غبار الجيش المسلم المرتفع إلى عنان السّماء خارجًا من المدينة. ولمّا تحققوا من صدق رحيل المسلمين إذ بأصوات عاليةٍ ترتفع خلف جيش المسلمين، وإذ بكهنة سمرقند يتصايحون خلف الجيش، فنزل قائد الجيش ليرى ما بهم.

وإذ بكهنة سمرقند يخبرون قادة الجيش أن المدينة قد أسلمتْ عن بكرة أبيها!! كهنة وتجارًا ومحاربين! فأيّ قوةٍ تلك التي حملها القاضي بين جنبيه ليُخرج المسلمين الفاتحين من مدينة استولوا عليها لأنها خالفتْ تعاليم دينهم وربما يمسُّ بعض الظلمِ أهلها!

لله درُّ عمر بن عبد العزيز وقاضي المسلمين، ورحم الله قتيبة بن مسلم ورضي عنه في الآخرة.

الحكاية السادسة

حكاية القسطنطينية

«غدًا يكون لي فيها عرشٌ أو يكون لي فيها قبر»

محمّد الفاتح

لا شيء خيرٌ من الليلِ والصحراءِ والسيفِ، وفرس يسابق بك نحو المجد تصنعه أنت وقومك، ويبقى للأبد حديث الرجال حول النيران في ليالي الصحراء القاسية، ليل الصحراء به سرٌ لا يعرفه أحدٌ، وصوت السيفِ حين يغادر غمدَه به لحنٌ شجيّ لا يطرب له كل أحد. بعد صبرٍ وانتظارٍ طويلين يقف جيش المسلمين أمام أسوار القسطنطينية لليلةٍ أخيرةٍ، يقولون إن السلطان أصدر أمرًا عامًا بالهجوم على الأسوار، وقد سمعوه يقول «غدًا يكون لي في القسطنطينية عرشٌ أو يكون لي فيها قبر». الليلة إذن هي الأخيرة هنا، حين تغادر الشمسُ مخبأها وتعود من جديد سنكون فوق

الأرض نشكر الله على النصر، أو نكون هناك مغيبين في باطنها ولا شيء يعزينا إلا أننا مِتنا على الطريق، وما أعظمه من نصرٍ لو كانوا يعلمون!

ليلة ربيعية صافية، لا يعكرها سوى لحنِ الراجماتِ، وصهيل الصافنات، وصليل الصارمات، وصراخات الجنود والأوامر العسكرية الصارمة. تحرك الجيش المسلم حثيثًا نحو الأسوار الشامخات، لا يوجد جنديّ واحد في الجيش إلا وقد ذاق مر الفقدان بسبب هذه الأسوار العنيدة، كانت أسوارًا أسطوريّة لطالما سمع بها الجنود وهم في شوارع مدينتهم آمنين، لكن فتح القسطنطينية كان شغل العثمانين الشاغل، ويبدو أن سلاطينهم وملوكهم ورجالاتهم الأوائل كانوا يعيشون لهذا الغرض فقط. فكيف لهم أن يكونوا آمنين وهذه الأسوار لم تسقط بعد؟

وصل أول الجيش عند السور القريب، واندلعت معركةٌ جديدة في سلسلة مستمرة من أيامٍ طويلةٍ جدًا، حتى ظنّ المسلمون أنه لا فائدة، صرخة السيف الأولى كانت من نصيب رجلٍ طواه التاريخُ في صفحاته ولا يعلم عنه أحدٌ شيئًا، لكنه أصمّ الأرض والسماء بضربته، وصل المسلمون بشق الأنفس للأسوار، وكان قتالًا عنيفًا مهيبًا، آلاف الأجساد تتصارع في مساحةٍ ضيقةٍ، ولا يوجد شيءٌ واحدٌ في اللوحة كلها لا يثير فزعك، ضربات المدافع العثمانية في السور لا ترجّ الأرض وحدها، بل القلوب أيضًا،

جرب أن تكون على السور القريب وهناك ألف مدفعٍ يقصف السور الذي لا يبعد عنك سوى بضعة أذرع!! أضف إليها صهيل الخيول الفزعة التي لم تشهد جنونًا كهذا منذ سلم المثنى وخالد روحيهما، وصليل السيوف ولا شيءَ غيرها، أيّة أعصاب تتحمل كل هذا في ظلمة ليلٍ بهيمٍ والفجر أبعد ما يكون؟

طلقات المدافع العثمانية في الليل كانت كالنّجوم التي ضلت طريقها في السماء فسقطت على الأرض، لكنها نجوم تحمل النار والموت بدلًا من النور والحياة، استحرّ القتلُ في الفريقين حتى بدا كأن محمدًا الفاتح قد ألقى بجنوده كلهم للموت وليس للقتال، كانت القسطنطينية أمنع مدن الأرض قاطبة وقد جهد الأولون في فتحها من أيام معاوية ولم ينجح أحد قط. أنهكت الفرقة الأولى التي أرسلها السلطان، فسحبها بهدوءٍ ونظامٍ وأحل محلها فرقة جديدة لم تضرب بسيفها اليوم حتى اللحظة، تلاحمت الأجساد مرة أخرى، أصواتُ الصوارم لم تكن مرعبة كفاية، فأمر السلطان بفرق الرماة أن تباشر عملها، فزاد الرعب رعبًا، كان الموت أسعد الموجودين هنا، يحصد الحيوات سيفًا ورمحًا وسهمًا ورجمًا ورعبًا.

كانت السواعدُ تتمسك بالحواسم أملًا في الحياة، لن تنجو إلا إن نجوتَ بسيفك. يا لها من ليلة! تبدو وكأنها لن تنتهي أبدًا، حتى مع بزوغ الفجر كان القتال ما زال جاريًا، وفرق المسلمين

تتوالى على الأسوار المنيعة حتى أنهكت المدافعين عن المدينة، ساعاتٌ طوالٌ مرت على الجيش وهو يحاول الوصول لأية ثغرة يستطيع منها أن يصل للمدينة ولم يفلح حتى اللحظة، وبدا أنه لن يفلح أبدًا. منذ أيام ليست بعيدة استطاع السلطان أن يسيّر السفن على اليابسة، لقد كانت السفن تمخر عباب اليابسة في مشهدٍ لم يسبق أن رآه التاريخ قبلًا.

حين الصباح وفي أتون الحرب المستعرة ضج فريق عريض من الجيش المقتحِم للأسوار. قد اخترقوا السور أخيرًا! .. المدافع العثمانية والجنود صنعوا ثغرة كانت كافية جدًا ليتدفق منها الجيشُ لداخل المدينة، كان منظرًا عظيمًا، كأنّه شريان حياة تتدفق منه الحياة إلى داخل المدينة الميتة منذ أنشئت ولن تعرف للحياة طعمًا إلا بالإسلام. اخترقوا السور ولم تنتهي الحرب بعد، قراع الأسنّة صار أعلى، وصوت حوافر الخيول أضحى أقوى، ونيران المدافع أصبح أشدّ، والتحم الجيشان لمرة أخرى، مرات كثيرة مضت لم يعد للتاريخ قوة كي يحصيها.

لظى الحرب اشتعل أكثر، وأهوال الحرب لا تفوقها أهوال، ولم يعد في قوس صبر منزع، حين توارت الشمسُ خوفًا وراء سحابة عابرة صعد رجلٌ من غِمار المسلمين البوابة الأعتى للمدينة العنيدة، وهناك ترك سيفه ورمحه وقوسه وراية الخلافة العثمانية ... وروحه! وكان رجل آخر من المسلمين ينتزع روح

جوستنيان ملك القسطنطينية ويسكت صوت النصرانية في أيا صوفيا للأبد.

يومٌ مجيدٌ آخر كتبه التاريخُ لاهثًا يسابق أبطال المسلمين ولا يسبقهم، شهد خنادق المسلمين تحت القسطنطينية وتلك السفن التي تركت بحارها وأخذت البرَّ طريقًا لها، ومدفعًا عثمانيًا صنعه مهندسٌ نصرانيّ لا يطيق ملكه، ومئات الآلاف من الأرواح حصدت، وعشرات الجنود من آل عثمان لم يهتدِ لطريقهم حتى اللحظة، ولهذا حكاياتٌ أخر.